جامعة الأزهر
كلية البنات الإسلامية
بأسيوط

المجلة العلمية

التَنَاسُب البَلَاغِي في تَنَاسُق الصفات المفردة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد في الذكر الحكيم

إعـداد

د/ سلامه دردير محمد على

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

في كلية اللغة العربية بجرجا

ملخص البحث

تناول البحث المناسبة البلاغية في تناسق الصفات المفردة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد في الذكر الحكيم؛ تناسقا يؤدي إلى أسرار ونكات بلاغية، وهو تناسق لا صلة له ب(التقديم والتأخير) القائم بين عناصر النظم تقديما وتأخيرا؛ لأنه – أعني التقديم والتأخير – يتطلب أصلا وفرعا؛ وليس هذا في التنسيق الذي تقوم عليه تلك الدراسة.

ومن هنا كان الفصل بين منهجية التناول وإجراءات التطبيق بين التناسق والتقديم والتأخير.

وتناسق الصفات للموصوف الواحد الزائدة على الثلاث في الذكر الحكيم لم يلق اهتماما كبيرا وواضحا من قِبَل الدارسين قديما وحديثا. كما تتخذ ظاهرة التناسق لتلك الصفات في القرآن الكريم نمطا واحدا، وإنما جاءت على سبيل التعديد من دون عطف في بعض المواضع، ثم جاءت بالعطف تارة أخرى.

وكل هذا إنما جاء في سياقات متعددة؛ لتحقيق نكات وأغراض بلاغية تؤدي إلى حقائق جمالية عالية، تصل إلى حد الإعجاز الذي لا يمكن معه استبدال التناسق الوارد بتناسق مغاير له ، مع تحقيق الغرض نفسه. فسبحان من أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجا .

الملخص الإنجليزى

The research dealt with rhetorical function in the coordination of the singular attributes of the three attributes of the one described in the Holy Writ; a coordination that leads to rhetorical secrets and jokes, which is not related to the (introduction and delay) that exists between the elements of the systems of delay and delay; ; Not in the coordination of the study. Hence, the separation between the methodology of handling and the application procedures between coordination, submission and delay. And the coordination of the qualities of the one descriptive excess of the three in the Holy Quran has not received much attention and clear by the scholars of old and recent. The phenomenon of coordination of these qualities in the Holy Quran is one pattern, but came as a way of saying without sympathy in some places, and then came with sympathy at other times. All this came in several contexts: to achieve jokes and rhetorical purposes that lead to high aesthetic truths, reaching the level of miracles where coordination in a different format can not be replaced with the same purpose. Glory be to Him Who sent down the Book to His servant, and did not make it crooked

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم.
وبعد ..

فقد جمع القرآن الكريم فنون البلاغة وأطراف البيان والفصاحة؛ ومن ثَم جاء محكما في نظمه، متماسكا في سبكه، متينا في أسلوبه، متصلا بعضه ببعض كأنه عقد منتظم، تناسقت حروفه، وائتلفت كلماته وجمله وآياته، والتحمت معانيه في انسجام تام؛ حتى جاء أوله مرتبطا بآخره، وآخره مؤتلفا مع أوله، في نظام لا يرقى إليه أي كلام أو نظم أبدا. حتى أنك تحسب ألفاظه لجمالها وروعتها منقادة لمعانيه، فإذا ما تغلغلت فيه وجدت معانية منقادة لألفاظه، فإذا ما رجعت البصر مرة ومرة ، فإنك ستظل مترددا بين انقياد معانيه لألفاظه، وانقياد ألفاظه لمعانيه، حتى تؤمن أخيرا بأنك تقرأ كلاما ليس من كلام البشر.[1]

يقول ابن عطية في كتابه (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز): " إن الله قد أحاط بكل شيء علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن؛ علم بإحاطته

١ ينظر: إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق – د/ حفني شرف: ص ٥ – منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- الجمهورية العربية المتحدة – الكتاب الرابع – ١٩٧٠م؛ ونظرية التحول في الخطاب القرآني – د/ فاضل مدب الأحبابي: ص ٣٣٤ – بحث منشور في مجلة أهل البيت – العدد الثامن عشر.

أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن أحدا من البشر لا يحيط بذلك؛ فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة ".[1]

وتأتي أهمية الدراسة من أهمية المجال الذي تبحث فيه وهو التناسق الترتيبي في الذكر الحكيم للصفات المفردة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد؛ للحظ ما فيها من تصاعد، أو مبالغة، أو تخصيص،...الخ. ذلك أن هذا اللون من التناسق لم يحظ بدراسة خاصة قديما أوحديثا، تجمع شواهده كلها أو تقوم بتحليلها؛ لذا فالهدف من الدراسة يكمن في الكشف عن وجوه التناسب البلاغي التي تستتر وراء هذا الترتيب الوارد في النظم الحكيم؛ مما يمثل وجوها لتعزيز الإعجاز البلاغي من خلال تناسق تلك الصفات ومجيئها وفق ترتيب خاص .

هذا . وقد جاءت دراسات اشتملت عناوينها على مصطلح (الترتيب) أو ما يرادفه من مصطلحات تناول فيها الدارسون شواهد قليلة من الصفات المتعددة للموصوف الواحد، والتي جاءت مرتبة على نسق معين في الذكر الحكيم ، سواء كانت مفردة أو من قبيل الجملة :

من تلك الدراسات: دراسة تحت عنوان (الصفات المفردة المتعددة

---

١ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي : ١ / ٤٩ – دار الكتب العلمية – لبنان – الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

لموصوف واحد في القرآن الكريم دراسة بلاغية)[1]. وقد ركز الباحث فيها على إبراز السر البلاغي لتنوع الصفات المتعددة التي لا تتعدى في الغالب الصفة أو الصفتين، دون التعرض لبيان أسرار الترتيب للصفات المفردة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد.

وهناك دراسة عنوانها (الترتيب في القرآن الكريم المجال والوسائل والبواعث والدلالات)[2]، رصد فيها الباحث ظاهرة الترتيب مؤصلة للمفهوم والتطبيق على آيات وشواهد لم تتعرض لشواهد ترتيب الصفات المفردة الزائدة على الثلاث؛ حيث انطلقت في معالجتها لظاهرة الترتيب من (نحو الجملة) الذي يجزيء النص إلى أجزاء تبدأ بالجملة وتنتهي بها.أو من زاوية (نحو النص) التي تمتد إلى النص كله.

كما وُجِدَ دراستان إحداهما بعنوان : (بديع الترتيب في القرآن الكريم دراسة دلالية جمالية)[3]، والأخرى بعنوان: (الترتيب في لغة القرآن الكريم)[4].

---

١ الدراسة عبارة عن رسالة ماجستير مقدمة من الباحث أحمد محمد أحمد محمود، تقدم بها الباحث إلى قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة أسوان ، سنة ٢٠١٧م.

٢ الدراسةعبارة عن رسالة دكتوراة للباحثة / رفاه عزيز العارضي، من جامعة القادسية، كلية الآداب، وقد طبعت في كتاب عن دار تموز في دمشق سنة ٢٠١٢م.

٣ الدراسة عبارة عن بحث أعده الباحث / خالد كاظم حميدي، وهو منشور في مجلة اللغة العربية وآدابها؛ في العدد الثامن عشر من سنة ٢٠١٣م. ووقعت في إحدى وثلاثين صفحة من القطع الصغيرة.

٤ هي دراسة للباحث/ شكيب غازي بصري الحلفي ، وهي بحث منشور في مجلة (دواة) ، وهي مجلة فصلية محكمة تعنى بالبحوث والدراسات اللغوية والتربوية، وقعت في تسع عشرة صفحة من القطع الصغيرة

وقد اتجهت الدراستان إلى تأصيل مفهوم (الترتيب) في اللغة والاصطلاح، وبيان صلة الترتيب بعلم النفس، والفرق بين الترتيب والتأليف، ثم التطبيق على بعض آيات القرآن الكريم التي ليس من بينها أي شاهد من شواهد دراستي تلك.

كما أن هناك دراسة عنوانها : (بلاغة التعديد في القرآن الكريم: دراسة في أسلوبية التعبير القرآني)[1] وقد شمل مقصد الترتيب بين الصفات المفردة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد صفحتين ونصف الصفحة فقط؛ من خلال تحليله لآيتي (غافر / ٣) وآية التوبة (١١٢). أما دراستي فمجالها مختلف عن كافة المحاولات السابقة؛ حيث اتجهت لدرس المناسبة البلاغية في ترتيب الصفات المتتالية؛ وذلك للحظ ما فيها من نكات بلاغية وأسرار بيانية . وهومما يجعل دراسة هذا اللون من الترتيب أمرا ملحا؛ تكميلا لجهد سابق، مستأنسا بما قاله حاجي خليفة في مقدمة كتابه (كشف الظنون):

" التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها: وهي إما شيء لم يسبق إليه فيبتكره، وإما شيء ناقص فيتممه، وإما شيء مغلق فيشرحه، وإما شيء طويل فيختصره، وإما شيء مفرق فيجمعه، وإما شيء مختلط فيرتبه، وإما

---

١ هي دراسة للباحث / مازن عبد الرسول سلمان ، وهو باحث في قسم اللغة العربية في كلية التربية جامعة ديالي، وقد وقعت تلك الدراسة في اثنتين وثلاثين صفحة من القطع الصغيرة.

شـــــيء أخطـــــأ فيـــــه مصـــــنفه فيصـــــلحه " [1]. أهـــــ
ومما هو جدير بالتنبيه عليه أن المراد بالصفة هي (الصفة المعنوية)، وليست الصفة النحوية. ويعنى بالمعنى: المعنى القائم بالغير.وهو ما يقابل الذات عند المتكلمين؛ فالوصف هنا مراد به: كل معنى من المعاني الذي أراد المتكلم إثباته لغيره أو نفيه عنه.[2]

وقد اعتمدت في دراستي على المنهج الوصفي القائم على الإحصاء والتحليل البلاغي؛ فهو يعتمد على جمع وإحصاء الصفات المفردة المتعددة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد في كل مواضع ورودها في الذكر الحكيم؛ وذلك بهدف الوصول إلى دلالتها وتدبر سياقاتها الخاصة؛ وصولا لما يمكن أن يهدي إليه المنهج التحليلي من وجوه وأسرار بلاغية تؤكد حقيقة مفادها: أن تناسق الصفات المفردة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد المنوطة بالدرس والتحليل قد جاءت في مكانها الملائم والأشكل بها من حيث يتعذر علينا جميعا الإتيان بتناسق غير التناسق الوارد في البيان الكريم المعجز.

وقد قسمت الدراسة إلى تمهيد، وستة مباحث رئيسة : تسبقها مقدمة، وتعقبها خاتمة، ففهارس :

---

١ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون – مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة: ١ / ٣٥ – تحقيق/ محمد شرف الدين يالتقايا، ورفعت بليكة – دار إحياء التراث العربي – بيروت / لبنان.

٢ الصفات المفردة المتعددة لموصوف واحد في القرآن الكريم دراسة بلاغية – الباحث أحمد محمد أحمد محمود: ص ١٢ –ماجستير – كلية الآداب بجامعة أسوان ، سنة ٢٠١٧م.

- ففي المقدمة: تحدثت عن أهمية الموضوع وأسباب اختياره، والمنهج الذي سرت عليه في تحليل الشواهد المشتملة عليها.

- أما التمهيد: فقد عرضت فيه - بإيجاز - لمفهوم التناسب ودلالته عند البلاغيين، وكذا مفهوم التناسق في اللغة والاصطلاح، وكيف عرض له أهل العلم القدامى .

- وأما المبحث الأول : تحدثت فيه عن التناسب البلاغي في تناسق الصفات الإلهية المفردة المتعددة الزائدة على الثلاث .

= المبحث الثاني : تناولت فيه التناسب البلاغي في تناسق الصفات النبوية المفردة المتعددة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد .

- المبحث الثالث : وتحدثت فيه عن التناسب البلاغي في تناسق الصفات الملائكية المفردة المتعددة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد .

- المبحث الرابع : تناولت فيه التناسب البلاغي في تناسق الصفات المفردة المتعددة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد في سياق الحديث عن المؤمنين والمؤمنات . -

المبحث الخامس : تناولت فيه التناسب البلاغي في تناسق الصفات المفردة المتعددة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد في سياق الحديث عن الحياة الدنيا .

المبحث السادس : تناولت فيه التناسب البلاغي في تناسق الصفات المفردة المتعددة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد في سياق الحديث عن الكافرين.

- خاتمة البحث.

- فهرس المصادر والمراجع.

- فهرس الموضوعات.

والله أسأل أن يلهمنا التوفيق والسداد، وأن يجعل هذا العمل مقبولا، وأن يتجاوز – سبحانه – عما فيه من خطأ أو زلل؛ فهو ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه الله العظيم .

الباحث

تمهيد

= أولا : مفهوم التناسب ودلالته لدى البلاغيين :

تجمع مادة (نسب) في اللغة أكثر من معنى؛ فهي تأتي بمعنى الاتصال والتشابك، وتأتي بمعنى الاشتراك في النَّسَب طولًا كالآباء والأبناء، أو عرضًا كالنَّسَب والقرابة بين الإخوة وبني الأعمام، وتأتي بمعنى المشاكلة والمشابهة:

يقول الزركشي : " المناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يُناسب فلانًا؛ أي : يَقرُب منه، ويُشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل؛ كالأخوين وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسبين بمعنًى رابط بينهما، وهو القرابة " .[1] وجاء في (مقاييس اللغة) لابن فارس: " النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها اتصال شيءٍ بشيء، منه النَّسب؛ سُمِّي لاتصاله وللاتصال به " .[2] وجاء في مفردات الراغب الأصفهاني: " النسب والنسبة: اشتراك من جهة أحد الأبوين، وذلك ضربان: نسب بالطول؛ كالاشتراك بين الآباء والأبناء، ونسب بالعرض؛ كالنسبة بين بني الإخوة وبني الأعمام؛ قال تعالى :﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾[3]".[4]

---

١ البرهان في علوم القرآن – الزركشي: ١ / ٣٥ – تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم– مكتبة دار التراث– القاهرة.

٢ مقاييس اللغة – أحمد بن فارس: ٥ / ٤٢٣ – تح / عبد السلام هارون – دار الفكر للطباعة والنشر – ١٩٧٩ م.

٣ الفرقان : ٥٤ .

٤مفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني : ٨٠١ – تحقيق / صفوان عدنان داوودي – دار القلم / دمشق – الدار الشامية بيروت – الطبعة الرابعة ٢٠٠٩م.

= أما التناسب في الاصطلاح : فقد وردت تعريفات متعددة لمصطلح التناسب أو المناسبة ؛ برهنت تلك التعريفات على أن هناك تقاربًا شديدًا بين علم المناسبة وعلم البلاغة؛ مما حدا ببعض العلماء وفي مقدمتهم الإمام البقاعي أن يجعله سِرَّ البلاغة؛ إذ إن المناسبة كما هو معروف عند البلاغيين هي: ترتيب المعاني المتآخية والمتشابهة والمتسقة، وعلم المناسبة – كما مرَّ – هو معرفة علل ترتيب الأجزاء، ومن هنا فإن علم المناسبة بالنسبة للمناسبة في البلاغة، كأصول الفقه بالنسبة للفقه، فهو حاضنُها، ومُعلل ترتيبها، ومُقنِّن لها، فالمناسبة البلاغية الترتيب والاتساق والتآخي، وعلم المناسبة هو معرفة علل وأسباب هذا الترتيب والتآخي . يقول برهان الدين البقاعي: "علم مناسبات القرآن: علم تُعرف منه عِللُ ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة .[1]

أما العلامة عبد الحميد الفراهي فقد أطلق على (التناسب) اسم (النظام)، وعرفه بقوله:

" أن تكون السورة كلاما واحدا، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة ... وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلامًا واحدًا، ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخِر".[2] كما عرف د/ محمد بازمول (التناسب) بقوله: " هو معرفة مجموع الأصول الكلية والمسائل المتعلقة بعلل ترتيب أجزاء

---

١ نظم الدرر – البقاعي : ١/ ٦-- دار الكتب الإسلامي بالقاهرة (د . ت).

٢ دلائل النظام – عبد الحميد الفراهي الهندي: ص٧٥ - المطبعة الحميدية – الطبعة الأولى – ١٣٨٨هـ.

القرآن العظيم بعضها ببعض " . [1] كما حدد أصولا كلية يرجع إليها هذا العلم؛ من أهمها : أنه لم يقدم في القرآن شئ على شيء إلا لحكمة وسِر، وأن الرابط إما أن يكون لفظيا أو معنويا. [2]

= الدلالة الاصطلاحية للتناسب عند علماء البلاغة :

إن الناظر في المصادر البلاغية لا يكاد يظفر بتعريف محدد يتفق عليه البلاغيون للدلالة الاصطلاحية للتناسب أو المناسبة ، فمنهم من أشار إليه شارحًا مفهومه اللغوي عن طريق الاستشهاد، ومنهم من أتى بالأمثلة دون أن يُحدد دلالته الاصطلاحية، إلا إشارات مقتضبة تضمَّنت دلالته الاصطلاحية التي لم تَختلف عن دلالته اللغوية كثيرًا. [3]

ومصداق هذا ما جاء عند الجاحظ في قوله : " لكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء: فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال" . [4]

---

١ علم المناسبات في السور والآيات – د / محمد بن عمر بن سالم بازمول : ص ٢٧– الناشر / المكتبة المكية – مكة المكرمة – الطبعة الأولى – ٢٠٠٢م .

٢ المرجع السابق: ص ٢٨ .

٣ ينظر: التناسب في سورة محمد (دراسة بلاغية تحليلية) – د / أحمد يحيى على محمد ، د / أحمد محمد علي محمد : ص ٤ – بحث منشور في مجلة آداب الرافدين – العدد الستون – سنة ٢٠١١م .

٤ الحيوان – الجاحظ : ٣ / ١٧.

فالجاحظ هنا يتحدث عن مناسبة الألفاظ مع الأغراض - فيطابق بين المناسبة والقاعدة البلاغية التي تقتضي أن لكل مقام مقالاً - ومطابقةِ الكلام لمقتضى الحال، وهذا بطبيعة الحال جزء من المناسبة، وهو مناسبة النص للواقع الذي يُلقى فيه.

ويعرف النويري (المناسبة) في كتابه (نهاية الأرب) بأنها : " ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر " .[1]

وهو تعريف تبدو فيه معالم مصطلح التناسب ، ومما يَلفت النظر فيه وصفه المعاني ب" المتآخية المتلائمة "، وهي صفة توحي بخلوِّها مما يَعتريها من صفات تُخرجها عن طبقة البلاغة، كما أنه لم يُعِر اهتماما واضحا للألفاظ، وهذا الإغفال متعمَّد ومقصود؛ إذ إن المعاني هي التي تتطلب الألفاظ، وكثيرًا ما نرى من أهل البلاغة مَن يشير إلى مصطلح المعاني ويريد به التركيب، على اعتبار أن بناء الكلام يحتاج إلى ركنين، هما المفردات والمعاني المراد توصيلُها.[2]

ومما يُلاحَظ في التعريفات الاصطلاحية السابقة للمناسبة عدة أمورمن أهمها :

---

١ نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري : ٧ / ٩٠- تحقيق / د / علي بن ملحم - منشورات محمد علي بيضون - دار الكتب العلمية بيروت / لبنان .

٢ التناسب في سورة محمد (دراسة بلاغية تحليلية) : ص ٦ . (مرجع سابق)

- الاتصال الوثيق بين التناسب والبلاغة؛ إذ هو " سر البلاغة " كما يؤكد البقاعي، فإذا كانت المناسبة عند البلاغيين هي ترتيب المعاني المتآخية[1]، فإن علم التناسب هو معرفة علل ترتيب الأجزاء. بل لقد عرف ابن رشيق البلاغة بأنها التناسب أو حسن النظام المرادف له عند أهل الاختصاص ، فهي:" القوة على البيان مع حسن النظام " [2]، ويضيف:" أبلغ الكلام ما حسُن إيجازه، وقل مجازه، وكثر إعجازه، وتناسبت صدوره وأعجازه . [3]

فضلاً عن أن نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم، ترتكز على فكرة الترتيب باعتبار أن معاني الكلام تترتب في النفس أولاً ثم تأتي الألفاظ مرتبة على وفق ترتيب المعاني في النفس.[4]

وما دام أن هناك ترتيباً خاصاً في الكلام فلا بد أن هناك معاني مقصودة لهذا الترتيب.

وإذا انشغل أكثر البلاغيين والمفسرين كالجرجاني، وغيره بالنظم داخل الآية القرآنية المفردة غالباً، أو بين الآيات المتجاورة، فإن علم التناسب ينظر

١ المعجم المفصل في علوم البلاغة – د / إنعام عكاوي : ٦ /٤٣٠ – دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى – ١٩٩٢م.

٢ العمدة – ابن رشيق القيرواني : ١/ ٢٤٤– تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد – دار الجيل – بيروت – الطبعة الخامسة – ١٩٨١م.

٣ المرجع السابق: ١/ ٢٤٦ .

٤ ينظر: دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني : ص ٥٤ – تحقيق / محمود محمد شاكر – الطبعة الثالثة – مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة ، ١٤١٣ هـ– ١٩٩٢ م .

إلى " النظام " الرابط بين أجزاء السورة جميعها، بل يمتد إلى القرآن كله، ومن ثم فإن من تمام بلاغة القرآن وبلاغه المبين أن يُتعامل معه باعتباره وحدة واحدة.

ولذلك تؤكد بعض التعريفات السابقة أن السورة وحدة واحدة، بل إن آيات القرآن الكريم لترتبط حتى تكون " كالكلمة الواحدة "، وهو تعبير غاية في تأكيد الوحدة العضوية للقرآن، فكما أن الكلمة يتهدم بنيانها من أي تغيير في حروفها أو زيادة أو حذف، فكذلك القرآن.

وكثيراً ما يجري تشبيه السورة أو القرآن جميعه بالبناء، أو بالجسم الإنساني، عند غير واحد من العلماء . [١]

أما عن أهمية معرفة علم المناسبة فقد جاءت مقولات أهل العلم مرشدة مَنْ يُطالِع تصانيفهم بضرورة معرفة أُسُسه وضوابطه؛ حتى يتسنى لهم معرفة أسرار النظم القرآني الحكيم؛ يقول الفخر الرازي: " أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط ".[٢]

وقال الزركشي:" واعلم أن المناسبة علم شريف، تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول".[٣]

وقال أيضا: " قال بعض مشايخنا المحققين: قد وهم مَنْ قال: لا يطلب

١ ينظر: التناسب في سورة البقرة– د/ طارق مصطفى محمد حميدة:١٠،٩– ماجستير جامعة القدس–٢٠٠٧م

٢ التفسير الكبير: ٥ / ٦٤٦ – دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية .

٣ المرجع السابق : ١ / ٣٥ .

للآي الكريمة مناسبة؛ لأنها حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا؛ فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون، مرتبة سُوَرهُ كلها وآياته بالتوقيف".[1]

ويقول الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني في معرض حديثه عن خصائص أسلوب القرآن الكريم :

" إن القران الكريم بلغ من ترابط أجزائه، وتماسك كلماته وجُمَله وآياته وسُوَره، مبلغا لا يدانيه فيه أي كلام أخر، مع طول نَفَسِه، وتنوع مقاصده وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد.

وآية ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم، وجدت جسما كاملا تربط الأعصاب والجلود والأغشية بين أجزائه، ولمحت فيه روحا عاما يبعث الحياة والحِس على تشابك وتساند بين أعضائه، فإذا هو وحدة متماسكة متآلفة، على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة، فبين كلمات الجملة الواحدة من التآخي والتناسق ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب، وبين جُمَل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء متعانقة الآيات، وبين سُوَر القرآن من التناسب ما جعله كتابا سَوِي الخَلْق، حَسَن السَمْت (قرآنا عربيا غير ذي عوج)[2] ....

يَعْرِفُ هذا الإحكام والترابط كلُ من ألقى باله إلى التناسب الشائع فيه من غير تفكك ولا تخاذل، ولا انحلال ولا تنافر، بينما الموضوعات مختلفة

---

١ البرهان في علوم القرآن – بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي : ١ / ٣٧ (مرجع سابق) .

٢ الزمر / ٢٨ .

متنوعة "[1].

أما البقاعي فقد رأى أن علم مناسبات القرآن هو سر البلاغه؛ لأنه يؤدي إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال وأن الإجادة فيه تتوقف على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، وذلك عن طريق معرفة جميع جُمَلها؛ فلذلك كان هذا العلم في غايه النفاسة وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو .[2]

= ثانيا: مصطلح (التناسق): الدلالة والتأصيل :

= المعنى اللغوي للتناسق :

التناسق أو التنسيق في مفهومه اللغوي ومادته (نسق) تعني: التنظيم والترتيب؛ أي: الأهم ثم المهم ؛ يقول الزمخشري في معجم (أساس البلاغة): " نسق الدر وغيره، ونسقه،ودر منسوق ومنسق ونسق، وتنسقت هذه الأشياء وتناسقت، ومن المجاز: كلام متناسق، وقد تناسق كلامه وجاء على نسق ونظام، وثغر منسق. وقام القوم نسقا، وغرست النخل نسقا. يقال لكواكب الجوزاء: النسق ".[3]

وجاء في لسان العرب لابن منظور:

" ونسقه : نظمه على السواء... يقال: ناسق بين الأمريْن: أي: تابع بينهما ...

١ مناهل العرفان في علوم القرآن – محمد عبد العظبم الزرقاني: ٢ / ٢٤٨ – تحقيق/ فواز أحمد زامرلي – الناشر/ دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٥م.

٢ نظم الدرر – البقاعي: ١ / ٦ .

٣ أساس البلاغة – جار الله محمود بن عمر الزمخشري: ٢ / ٢٦٦ ، ٢٦٧ – تحقيق/ محمد باسل عيون السود – منشورات محمد علي بيضون – دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٩٩٨م.

ونسق الأسنان: انتظامها في النبتة وحسن تركيبها . والتنسيق : التنظيم".[١]

وجاء في القاموس للفيروزآبادي:

" نسق الكلام: عطف بعضه على بعض. والنسق محركة: ما جاء من الكلام على نظام واحد. ومن الثغور المستوية، ومن الخرز: المنظم .. ومن كل شيء: ما كان على طريقة نظام عام..... والتنسيق: التنظيم، وناسق بينهما: تابع ، وتناسقت الأشياء: وانتسقت وتنسقت بعضها إلى بعض: بمعنى ".[٢]

= المفهوم الاصطلاحي للتناسق :

أما عن مفهوم التناسق أو التنسيق في الاصطلاح: أن يذكر الشيء بصفات متوالية ، وتكون متلاحمة تلاحما سليما مستحسنا غير مستهجن، نحو: (هو الله الذي لا إله إلا هم .. الآية) .

وهو أيضا: إجراء الكلام على نظام واحد ومرتب . أو سرد الصفات المتوالية، ويدخل فيه: تنسيق الأفكار، وتنسيق الجمل ، وتنسيق الألفاظ. وكلها بمعنى : العرض بنظام واحد.[٣]

وقد أشار لرشيد الوطواط في كتابه (حدائق السحر في دقائق الشعر) عن (تنسيق الصفات) وعرفه فقال: " وتكون هذه الصفة بأن يذكر الكاتب أو

---

١ لسان العرب – ابن منظور : ١٠ / ٣٥٠ ، ٣٥١ –دار صادر بيروت.

٢ القاموس المحيط – مجد الدين الفيروزآبادي :ص ٩٢٥ – تحقيق لجنة إحياء التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف/ محمد نعيم العرقسوسي – مؤسسة الرسالة – الطبعة الثامنة ٢٠٠٥م.

٣ ينظر: نهاية الأرب : ٧ / ١٠٩؛ والمعجم المفصل في علوم اللغة (الألسنيات) – د / محمد التونجي ، والأستاذ / راجي الأسمر : ١ / ٢٠٧ – منشورات محمد علي بيضون – دار الكتب العلمية بيروت / لبنان .

الشاعر شيئا بجملة أسماء أو جملة صفات متوالية، كقوله تعالى: (هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس الآية).[1]

وذكر الرازي في كتابه (نهاية الإيجاز)[2] تنسيق الصفات، ومثل له بالآية السابقة.

وتحدث عنه الحلبي في كتابه (حسن التوسل) وعرفه فقال: " هو أن يذكر الشيء بصفات متوالية ".[3] وذكر مثله النويري في كتابه (نهاية الأرب).[4]

وقد سماه ابن أبي الإصبع المصري (حسن النسق) وعرفه فقال: " هو أن تأتي الكامات من النثروالأبيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحما سليما مستحسنا لا مستهجنا ". [5]

وأضاف: " والمستحسن من ذلك أن يكون كل بيت إذا أفرد قام بنفسه

---

١ حدائق السحر في دقائق الشعر – رشيد محمد العمري (الوطواط): ص ١٥٠ – ترجمة / إبراهيم أمين الشواربي –تقديم / أحمد الخولي – الطبعة الثانية – ٢٠٠٩م.

٢ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز – الفخر الرازي : ص ١٧٤ ، ١٧٥– تحقيق / نصر الدين حاجي أوغلي – دار صادر بيروت – الطبعة الأولى – ٢٠٠٤م.

٣ حسن التوسل في صناعة الترسل – شهاب الدين الحلبي : ٦٤ – المطبعة الوهبية بمصر – ١٣٩٨ هـ.

٤ نهاية الأرب في فنون الأدب – شهاب الدين أحمد النويري : ٧ / ١٣٠ – دار الكتب المصرية القاهرة.

٥ ينظر : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن– ابن أبي الإصبع: ٣ / ٤٢٥– تحقيق/ حفني شرف.

واستقل معناه بلفظه، وإن ردفه مجاوره صار بمنزلـه البيت الواحـد، بحيث يعتقد السامع أنـهمـا إذا انفصلا تجزأ حسنـهما ونقص كمالـهما وتقسم معناهمـا، وهمـا لـيس كـذلك، بـل حالـهمـا فـي كمـال الحسـن وتمـام المعنـى مـع الانفـراد والافتـراق كحالـهما مع الالتئام والاجتماع. [1]

وسماه ابن الأثير الحلبي في كتابه (جوهر الكنز) [2]: (التمزيـج وحسن الارتباط وحسن الترتيب وحسن النسق وحسن الانسجام) وعرفـه بمـا يقـرب من تعريف ابن أبي الإصبع . وذكر مثله ابن قيم الجوزية في كتابه بدائع الفوائد . [3]

كمـا عرفـه ابـن حجـة الحمـوي فقـال: " هـذا النـوع أعنـي : حسـن النسق ويسمى التنسيق، من محاسن الكلام، وهو: أن يأتي المتكلم بالكلمـات مـن النثـر والأبيات من الشعر ..... " . [4]

غير أن السيوطي في كتابه (الإتقان) [5] وابن معصوم المدني في كتابـه (أنـوار الربيـع) [6] ذكرا رأي أصحاب البديعيات من جهـة ، ورأي الـرازي والحلبـي

---

١ المرجع السابق: ٣ / ٤٢٥.

٢ ينظر: جوهر الكنز (تلخيص كنز البراعة في أدوات ذوي البراعة)- نجم الدين أحمد بن إسماعيل ابن الأثير الحلبي: ٢٩٧ : ٢٩٩- تحقيق/ الدكتور محمد زغلول سلام – الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية- ٢٠٠٩م.

٣ ينظر: بدائع الفوائد: ١ / ١٩١.

٤ ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب – ابن حجة الحموي: ص ٤١٦- القاهرة – ١٣٠٤هـ

٥ ينظر: الإتقان في علوم القرآن – السيوطي: ٢ / ٩٠ – القاهرة ١٣٦٨

٦ ينظر: أنوار الربيع في أنواع البديع – علي صدر الدين ابن معصوم المدني: ٦ / ١٢٨ – تحقيق/ شاكر هادي شكر – النجف الأشرف ١٩٦٨م .

من جهة ثانية .[1]

= <u>الفرق بين التناسق والتأليف والترتيب والنظم</u> :

وإذ قد تبين لنا المفهوم اللغوي والاصطلاحي للتناسق يجدر بنا التعرض لمصطلحات مقاربة له في المعنى كالتأليف والترتيب والتنظيم؛ فقد فرق أبو هلال العسكري في كتابه (الفروق اللغوية) بين كل من <u>التأليف والترتيب والتنظيم</u>؛ بقوله: " إن التأليف يستعمل فيما يؤلف على استقامة، أوعلى اعوجاج، والتنظيم والترتيب لا يستعملان إلا فيما يؤلف على استقامة. ومع ذلك فإن بين الترتيب والتنظيم فرقا وهو أن الترتيب هو: وضع الشئ مع شكله، والتنظيم هو: وضعه مع ما يظهر به؛ ولهذا استعمل النظم في العقود والقلائد؛ لأن خرزها ألوان يوضع كل شئ منها مع ما يظهر به لونه "[2]. ثم إن الترتيب أخص مفهوما من التأليف؛ فالعلاقة بين المُصطلَحَيْن علاقة جزء بكل، فكل ترتيب تاليف، وليس كل تأليف ترتيبا.

فالترتيب أخص مفهوما من التأليف؛ إذ يشترط في الترتيب تحديد نسبة بعض الأجزاء إلى بعض تقديما وتأخيرا، ولا يوجد هذا الاشتراط في التأليف.

وعلى الرغم من دقة التفريق بين المصطلحين فقد يعني التأليف عند

---

١ المعجم المفصل في علوم البلاغة – د / إنعام عكاوي : ص ٤٣٦ ، ٤٣٧– دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى – ١٩٩٢م.

٢ الفروق اللغوية – أبوهلال العسكري ص ١٤٨ –١٤٩ تحقيق/ محمد إبراهيم سليم – دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع (د.ت) .

الأقدمين المعنى الخاص للترتيب، وهذا يتضح من خلال عرضنا لمصطلح آخر قد يشاكله في المفهوم عند بعضهم، ونعني به (النظم) الذي كان يعني عند جل من سبق عبد القاهر الجرجاني ما يؤديه مصطلح (التأليف) من معنى، وهو – أي: النظم – لا يبتعد كثيرا عن معناه اللغوي، الذي يعني: ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغيرهما، فيقال : نظم الأشياء نظما: ألفها، وضم بعضها إلى بعض ، ونظم اللؤلؤ ونحوه، وانتظم الشئ تآلف واتسق، ونظم الأشياء جمعها وضم بعضها إلى بعض، ونظم اللؤلؤ ونحوه: جعله في سلك ونحوه، وانتظم الشئ: تآلف واتسق، ونظم الأشياء جمعها وضم بعضها إلى بعض، تناظمت الأشياء: تضامت وتلاصقت.[1]

وهذه المعاني غير بعيدة عن معناها الاصطلاحي الذي يعني: تأليف الكلمات والجُمَل مرتبة المعاني متناسقة على حسب ما يقتضيه العقل .[2] وفي ضوء ما سبق يمكن تقريرأن (التناسق أو التنسيق) و (الترتيب) و(التأليف) و(النظم) كلها معان متقاربة قد يصدق بعضها على بعضها،غير أنها تفترق بمعانيها الاصطلاحية لدى بعض البلاغيين والنقاد، فيكون لكل معنى؛ ف(النظم) الذي كان عند كثير منهم بمعنى مرادف أو قريب من (التأليف)، أصبح عند الإمام عبد القاهر الجرجاني[3] أوسع من ذلك، وأضحى فكرة استوت على سوقها ونظرية قائمة على عنصرَيْن لغويين، هما: الاختيار

١ ينظر: لسان العرب – ابن منظور : مادة (نظم)؛ والقاموس المحيط : باب الميم ، فصل النون .

٢ ينظر: الترتيب في لغة القرآن الكريم– شكيب غازي بصري الحلفي: ص ١٥٩.

٣ ينظر: الدلائل : ص ٣٥٩ إلى ص ٣٦٤ (تحقيق : شاكر) .

والتأليف.[1]

= <u>أنماط نظم تناسُق الصفات المفردة المتعددة للموصوف الواحد الزائدةعلى الثلاث في القرآن الكريم</u> :

إن الناظر في آيات القرآن الكريم يجد التلاحم والترابط بين آياته، بل يجد كل كلمة – سواء أكانت في موضع الصفة أم غيرها – إنما رتبت لغاية ووضعت لتؤدي معنى وهدفا؛ فلا تنافر ولا انفصام ولا تشتيت للمعنى، وهذا الترتيب يشكل مع الترتيب بين الآيات بعضها البعض الشطر الأكبر والأعظم الذي تدور حول إثباته الرسالة.

واستخلاص مقاصد القرآن من كثرة أنواع المفردات القرآنية وكثرة مواضعها يتم بالصبر والاجتهاد ولذلك كله نتيجة كبرى هي الفقه، فلا شك أن الفقه في حقيقته لا يتم لأحد إلا إذا تدرب تدريبا متواصلا على النظر في مفردات القرآن.[2]

ويعد علم المناسبات الأهم من مناسبات القرآن وغيره تعرف منه علل الترتيب، وأجزاء الشئ المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب، والاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما ورائه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كَلُحْمة النَسَب، سواء تعلق ذلك بتنسيق الصفات وتعددها أوغير ذلك؛ فهو علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، ومفرداته من صفات

---

١ ينظر: الترتيب في لغة القران الكريم– شكيب غازي بصري الحلفي: ص ١٥٩، ١٦٠.

٢ ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القران الكريم – دراسة تحليلية – د/ منير محمود المسيري: ١٣٠,١٣١ مكتبة وهبة / ط أولى – ٢٠٠٥م .

وغيرها، وهوسر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال. وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها؛ فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو.

وقد نقل الإمام شمس الدين محمود الأصفهاني في تفسير قوله تعالى (آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون .. الآية)[1] عن الإمام الرازي أن من تأمل في لطائف نظم القرآن وفي بدائع ترتيب سوره وآياته ومفرداته؛ علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته.

ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه؛ أرادو ذلك .

وبهذا العلم يرسخ الايمان في القلب ويتمكن من اللب؛ وذلك لأنه يكشف أن للإعجاز طريقين : أحدهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب .

والآخر: نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب. والأول أقرب تناولا وأسهل ذوقا، فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي؛ يهتز لمعانيه وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط ، ورهبة مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره، فكلما دقق النظر في المعنى؛ عظم عنده موقع الاعجاز، ثم إذا عبر الفَطِن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها؛ خفي عليه وجه ذلك، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض، متنائية المقاصد، فظن أنها متنافرة؛

---

١ البقرة / ٢٨٥ .

فحصل لـه مـن القبض والكرب أضعاف مـا كـان حصل لـه بالسماع مـن الهـز والبسط .

فإذا استعان بالله وأدام الطرق لباب الفرج بأنعام التأمل وإظهار العجز والوثوق بأنه في الذروة من إحكام الربط ، كما كان في الأوج المعنى واللفظ ؛ لكونه كلام من جل عن شوائب النقص، وحاز صفات الكمال؛ إيمانا بالغيب وتصديقا للرب، قائلا ما قال الراسخون في العلم:

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)[1]؛ فانفتح له ذلك الباب، ولاحت له من ورائه بوارك أنوار تلك الأسرار، رقص الفكر منه طربا، وشكروا لله استغرابا وعجبا، وشاط لعظمة ذلك جنانه فرسخ من غير مرية إيمانه، ورأى أن المقصود بالترتيب معاني جليلة الوصف، بديعة الرصف، عالية الأمر، عظيمة القدر، مباعدة لمعاني الكلام على أنها منها أخذت؛ فسبحان الله من أنزله وأحكمه وفصله، وغطاه وجلاه، وبينه غاية البيان وأخفاه .[2]

هذا . ويعد ترتيب النظم القرآني الحكيم للصفات المفردة المتعددة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد ضمن الموضوعات التي تندرج تحت هذا العلم الشريف .

وقد كشفت طبيعة ترتيب النظم القرآني الحكيم لتلك الصفات أنها تأتي على نمطين اثنين:

---

١ آل عمران / ٨ .

٢ ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور- برهان الدين البقاعي : ١ / ٥ – ١٣.

إما معطوفة بعضها على بعض بالواوعطفها أو من دونها؛ وقد أنبأ هذا عن أن أصل ابتنائها قائم على أنه " إذا تعددت الصفات وصاحبها واحد؛ فالأحسن أن تباعد معنى الصفات العطف نحو:

(هو الأول والآخر والظاهر والباطن) الآية [1]، وإلا تركه نحو: (ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم).[2]

وقد يؤتى بالواو للاهتمام؛ جاء في (تفسير الرازي) في قوله تعالى: (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشرالمؤمنين).[3]: " في إدخال الواو على هؤلاء (والناهون)؛ وذلك لأن كل ما سبق من الصفات عبادات يأتي بها الإنسان لنفسه، ولا يتعلق لشيء منها بالغير. أما النهي عن المنكرفعبادة متعلقة بالغير، وهذا النهي يوجب ثوران الغضب وظهور الخصومة، وربما أقدم ذلك المنهي على ضرب الناهي، وربما حاول قتله؛ فكان النهي عن المنكر أصعب أقسام العبادات والطاعات، فأدخل عليها الواو؛ تنبيها على ما يحصل فيها من زيادة المشقة والمحنة ".[4]

وفي قوله تعالى: (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي

---

١ الحديد / ٣ .

٢ القلم / ١٠ – ١٣ .

٣ التوبة / ١١٢ .

٤ تفسير الفخر: ١٦ / ٢٠٥

الطول)[1] فصل بالواو بين (غافر الذنب) و(قابل التوب)؛ للاهتمام بالتوبة ههنا، ويدل على ذلك قوله تعالى فيما بعد هذه الآيات: (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم)[2] .

ثم إن العطف بالواو قد يؤتى به لتحقيق اجتماع الصفات في الموصوف؛ وذلك كأن تقول لشخص ينكر أو يستبعد اتصاف الموصوف بصفة واحدة من صفات الكمال، فضلا عن عدة صفات :

" هو كاتب وخطيب وشاعر "؛ فتأتي بالواو لتحقيق اجتماع هذه الصفات فيه .

جاء في (بدائع الفوائد): " إن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم وتقريره في الكلام متضمنا لنوع من التأكيد من مزيد التقرير .

وبيان ذلك بمثال نذكره مرقاة إلى ما نحن فيه، إذا كان رجل – مثلا – له أربع صفات هي: (عالم وجواد وشجاع وغني)، وكان المخاطب لا يعلم ذلك أو لا يقر به، ويعجب من اجتماع هذه الصفات في رجل، فإذا قلت: (زيد عالم)، وكان ذهنه استبعد ذلك فتقول: (وجواد) أي: وهو مع ذلك جواد، فإذا قدرت استبعاده لذلك قلت: (وشجاع)، أي: وهو مع ذلك شجاع وغني؛ فيكون في العطف مزيد تقرير وتوكيد لا يحصل بدونه تدرأ به توهم الإنكار ".[3]

---

١ غافر / ٣ .

٢ غافر / ٧ .

٣ بدائع الفوائد: ١ / ١٩١؛ وينظر: معاني النحو– د / فاضل صالح السامرائي : ٣ / ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٢٥ – دار الفكر للطباعة والنشر – الطبعة الأولى – ٢٠٠٠م؛ والبرهان للزركشي: ٢ / ٤٤٦– ٤٥٠ ؛ ٣ / ٤٧٥ – ٤٧٧ .

وفي هذا استثمار ما تقرر من محددات نحوية في المدخل النحوي؛ فقد جاء في كتاب سيبويه :

" فأما النعت الذي جرى على المنعوت فقولك: " مررتُ برجل ظريف قبل "، فصار النعت مجرورا مثل المنعوت؛ لأنهما كالاسم الواحد. وإنما صارا كالاسم الواحد من قِبَل أنك لم ترد الواحد من الرجال الذين كل واحد منهم رجل، ولكنك أردت الواحد من الرجال الذين كل واحد منهم رجل ظريف. فهو نكرة، وإنما كان نكرة؛ لأنه من أُمة كلها له مثل اسمه، وذلك أن الرجال كل واحد منهم رجل، والرجال الظرفاء كل واحد منهم رجل ظريف، فاسمه يخلطه بأُمته، حتى لا يُعرف منها. فإن أطلت النعت فقلت: " مررتُ برجل عاقل كريم مسلم "، فَأَجْرِهِ على أوله ".[1] وزاد سيبويه في موضع آخر عبارات: " أثنى عليه " ، و " وجعلهما شرعا سواء " ، و " سوى بينهما في الإجراء على الاسم "؛ قال :

" ومثله في أن الوصف أحسن: (هذا رجل عاقل لبيب)، لم يجعل الآخر حالا وقع فيه الأول، ولكنه أثنى عليه، وجعلهما شرعا سواء، وسوى بينهما في الإجراء على الاسم".[2]

وهو عبارات ترادف في المعنى مصطلح (الترتيب). فالترتيب إطالة للصفة؛ ذلك أنك بإطالة الصفات وذكرها مترادفة وكأنك جعلت " الكل وصفا لموصوف واحد ". أي: متساويين في الحكم والدلالة على الموصوف، وزيادة

---

١ الكتاب – أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر : ١ / ٤٢١ ، ٤٢٢ – تحقيق وشرح / عبد السلام هارون – الناشر / مكتبة الخانجي بالقاهرة – الطبعة الثالثة – ١٩٨٨م.

٢ المرجع السابق: ٢ / ٥١ .

تبيينه.

وقد اتخذ ما سبق مبتغى إلى استشراف أسرار ونكات بلاغية يقصدها المقام والسياق اللذان يرسمان نمط ترتيبها عطفا، أو بغير عطف. ويمكن تلخيص هذا الأصل في نَمَطَيْن :

أولهما : ذكرها متتالية من غير واو. وفي ذلك إيذان بمعنى خاص مفاده: أن هذه المتتاليات الوصفية أصبحت باجتماعها كالوصف الواحد لموصوف واحد[1]؛ وذلك لتقاربها في المعاني وعدم تغاير دلالاتها أو تناقضها، أو مما يمكن اجتماعها من الصفات من غير إيهام . والآخر : ذكرها منسوقة بالواو، وفيها إيذان بمعان خاصة مقصودة بلاغيا.[2]؛ وهو ما يؤسس لأصل يتلخص في الآتي :

- إن عطف الصفات يقتضي المغايرة، والمقصود بالمغايرة هنا تضاد معاني الصفات، أو افتراق دلالتها واختلافها. فإذا أريد التنبيه على هذا التغاير؛عطف بالحرف .

- وأن ترتيبها من غير واو دليل على تقارب هذه المعاني، أوهي مما يمكن اجتماعها من غير ايهام لتدل على أن الكل كالشيء الواحد، ف " الواو إذا حذفت مع ما فيها من الإيجاز يجعل للكلام بلاغة، ويكون في معناه أشد؛ وذلك لأن اثباتها يقتضي تغاير المعطوف والمعطوف عليه، فإذا حُذِفَتْ أشعر ذلك بأن

---

١ ينظر: التفسير الكبير : ١٧ / ١٣٧.

٢ ينظر : التحرير والتنوير : ٣ / ١٨٥.

الكل كالشيء الواحد.[1]

وقد عبر أهل العلم عن الترتيب بمصطلحات متنوعة ، من أبرزها مصطلح (التعديد)؛ وقد عرفه الفخر الرازي بقوله: "هو: إيقاع الأعداد من الأسماء المفردة في النثر والنظم على سياق واحد، فإن روي فيه ازدواج أو تجنيس أو مطابقة أو مقابلة أو نحوها؛ فذلك في غاية الحسن ".[2] ومنه قول القائل: " فلان إليه الحل والعقد والقبول والرد والأمر والنهي والإثبات والنفي "، وقول المتنبي[3] : فالخيل والليل والبيداء تعرفني والضرب والطعن والقرطاس والقلم

وقال ابن الزملكاني: " هو : إيقاع الألفاظ المفردة على سياق واحد ".[4] كقوله تعالى: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم .. الآية).[5]

١ ينظر : الفوائد المشوق – ابن النقيب : ص ١٥٥؛ وينظر: بلاغة التعديد في القرآن الكريم : دراسة في أسلوبية التعبير القرآني) مازن عبد الرسول سلمان – ص ١٤٤ ، ١٤٥ – جامعة ديالي – قسم اللغة العربية – كلية التربية الأساسية .

٢ نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز – فخرالدين الرازي: ص ١١٣ – القاهرة ١٣١٧ هـ؛ وينظر: الإيضاح في شرح مقامات الحريري – أبو المظفر ناصر بن المطرزي : ص ٢١ – إيران – ١٢٧٢هـ.

٣ ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان : ٣ / ٣٦٩– ضبط وتصحيح/ مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي – الناشر/ دار المعرفة للطباعة – بيروت / لبنان (د . ت).

٤ التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن – عبد الواحد عبد الكريم الزملكاني: ص ١٧٧– تحقيق د / أحمد مطلوب ، و د / خديجة الحديثي – بغداد ١٩٦٤م.

٥ البقرة / ٢٥٥.

وقوله تعالى: (الخالق البارئ المصور).[1] وقال الحلبي والنويري أنه يسمى: " سياقة العدد " أو " سياقة الأعداد ، ونَقَلاَ كلام الرازي ومثاليْه : النثري والشعري.[2]

وكان الثعالبي قد سماه:" حسن سياقة الأعداد ".[3] ، وفعل مثل ذلك الوطواط الذي قال: " سياقة الأعداد: وتكون هذه الصنعة بأن يسوق الكاتب أو الشاعر في نثره أو نظمه عددا من الأسماء المفردة على نسق واحد، بحيث يكون كل واحد من هذه الأسماء له معنى قائم بذاته، ويكون اسما كذلك لشيء آخر. وهذه الصنعة أكثر قبولا وأشد أسرا؛ إذا اقترنت بازدواج النظم أو التجنيس أو التضاد أو أي صنعة أخرى من صناعات البلاغة".[4]

وقال ابن الجوزية: " ويسمى أيضا سياق الأعداد ".[5] ، وذكر تعريف الرازي ومثاليْه وأمثلة أخرى من القرآن الكريم ، كقوله تعالى: (هو الله الذي لا

---

١ الحشر / ٢٤.

٢ حسن التوسل إلى صناعة الترسل – شهاب الدين محمود الحلبي – ص ٢٤٧ – تحقيق د / أكرم عثمان يوسف – بغداد – ١٩٨٠م؛ ونهاية الأرب في فنون الأدب – شهاب الدين أحمد النويري : ٧ / ١٣٠ (مرجع سابق).

٣ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر – أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي:١ /٢٤٣ – تحقيق د / مفيد قميحة – دار الكتب العلمية / بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٩٨٣م.

٤ حدائق السحر في دقائق الشعر – رشيد محمد العمري الشهير بالوطواط : ص ١٤٩ – ترجمة د/ إبراهيم الشواربي – القاهرة ١٩٤٥م.

٥ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان – ابن النقيب: ص ١٦٤ – القاهرة ١٣٢٧ هـ.

إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر...).[1]

ولا يخرج كلام الزركشي عن كلام السابقين، وإن أضاف: " وأكثر ما يؤخذ في الصفات ومقتضاها ألا يعطف بعضها على بعض؛ لاتحاد محلها ويجري مجرى الوصف في الصدق على ما صدق " [2].

وهذا ما سماه غير المتقدمين : " الأعداد " . وذكرالحموي أن هذا النوع- أعني: التعديد – قد ذكره الإمام فخر الدين الرازي وغيره . وسماه قوم: " سياقة الأعداد " و" تعديدا " و"سياقة العدد ".[3]

١ الحشر / ٢٣.
٢ البرهان في علوم القرآن – بدر الدين محمد عبد الله الزركشي: ٣ / ٤٧٥ . (مرجع سابق)
٣ ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب – ابن حجة الحموي: ص ٤١٦- القاهرة – ١٣٠٤هـ؛ ومعترك الأقران في إعجاز القرآن – السيوطي: ١ / ٣٩٧ – تحقيق / علي محمد البجاوي – القاهرة – ١٩٧٣م؛ والإتقان في علوم القرآن – السيوطي: ٢ / ٩٠ – القاهرة ١٣٦٨ هـ؛ وشرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان – السيوطي:ص ١٤٩ – القاهرة ١٩٣٩م؛ وأنوار الربيع في أنواع البديع – علي صدر الدين ابن معصوم المدني: ٦ / ١٢٨ – تحقيق/ شاكر هادي شكر – النجف الأشرف ١٩٦٨م؛ و(معجم المصطلحات البلاغية وتطورها) د / أحمد مطلوب – ص ٢٥١ ، ٢٥٢ – مطبعة المجمع العلمي العراقي – ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م).

المبحث الأول

التناسب البلاغي في تناسُق الصفات الإلهية المفردة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد

= **تمهيد** :

الصفة عند أهل العلم هي: " الاسم الدال على بعض أحوال الذات٠٠٠وهي الأمارة اللازمة بذات الموصوف الذي يُعرف بها " [1]، وهي: " ما وقع الوصف مشتقاً منها، وهو دالٌ عليها، وذلك مثل العلم والقدرة، ونحوه" [2].

وقال ابن فارس: " الصفة : الأمارة اللازمة للشيء " [3]، وقال: " النعت: وصفك الشيء بما فيه من حسن " [4].

وقد أطلق العلماء على السمات التي تميز الذات الإلهية عن غيرها كلمة (الأسماء) تارة، وكلمة (الصفات) تارة أخرى.

والاسم عند أهل العلم: " ما دل على معنى في نفسه " [5]، و" أسماء

---

١ التعريفات : ص ١٣٣.

٢ الكليات : ص٥٤٦. ويعنى بالوصف هنا الاسم ؛ فالعلم صفة ، والعالم وصف دال عليها ، والقدرة صفة ، والقادر وصف دال عليها.

٣ معجم مقاييس اللغة : ٤٤٨/٥.

٤ المرجع السابق : ١١٥/٦.

٥ (التعريفات) : الشريف علي بن محمد الجرجاني ، ص ٢٤ تصحيح جماعة من العلماء دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ.

الأشياء هي الألفاظ الدالة عليها "[1]، " وقيل: " الاسم: ما أنبأ عن المسمى، والفعل: ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف: ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل "[2].

وأول ما يلاحظ أن الاستعمال الوارد في القرآن والسنة قد اقتصرعلى كلمة (الأسماء) دون (الصفات)؛ ولذا جاءت جميع الشروح والدراسات تحت عنوان (أسماء الله) أو(أسماء الله الحسنى) ربما باستثناء (كتاب الأسماء والصفات) للبيهقي.

أسماء الله – تعالى – فيها دلالة واضحة – جلية – على ما اتصف به تعالى من الخلق، والرزق ، والإحياء، والإماتة، والقدرة، والمغفرة، والرحمة،... وغيرذلك من نعوت جلاله.

والقرآن الكريم من أوله إلى آخره يدعو الناس إلى النظر في صفات الله – عز وجل – وأفعاله وأسمائه دون الذات المجردة؛ فإن الذات المجردة لا يلاحظ معها وصف ولا يشهد فيها نعت، ولا تدل على كمال ولا جلال؛ ولذا لا تفترق أسماء الله تعالى وصفاته عن ذاته.[3]

---

١ مجموع الفتاوى : أحمد بن عبدالحليم بن تيمية ، جمع عبد الرحمن بن قاسم ، تصوير الطبعة الأولى.

٢ الكليات – أبو البقاء الكفوي : ص ٨٣ – تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ.

٣ ينظر : مدارج السالكين – ابن القيم :١/٥١٤ دار الكتب العلمية / بيروت – الطبعة الأولى (د . ت).

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن أسماء الرب – تعالى – هي أسماء ونعوت؛ فإنها دالة على صفات كماله؛ فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية؛ فالرحمن اسمه – تعالى – ووصفه، لا تنافي اسميته وصفيته؛ فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله – تعالى –، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع، بل ورد علما ... ، واسمه تعالى (الرحمن) اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر، وجاء استعمال القرآن بالأَمْرَيْن جميعا .[1]

ويقول الشيخ الطاهر: " والمراد بالأسماء الصفات، عبر عنها بالأسماء؛ لأنه متصف بها على أَلْسِنَةِ خَلْقِهِ، ولكونها بالغة منتهى حقائقها بالنسبة لوصفه – تعالى – بها؛ فصارت كالأَعْلام على ذاته تعالى ".[2]

وفي ضوء ما سبق يمكن الاطمئنان إلى القول بما يأتي :

– أن ما يستحق أن يسمى (أسماء لله) ولا يصح أن يسمى (صفة)هو لفظ الجلالة (الله) وحده.

– أن ماعدا لفظ الجلالة (الله) صفات في الحقيقة، وقد لوحظ في إطلاقه على الذات الإلهية ما تحمله من دلالات خاصة. وأن صفات الله غير محصورة ولا معدودة، وهي تشمل كل ما يليق بذاته المقدسة وما يدل على صفاته أو أفعاله.

– أن ما انتهى من هذه الصفات هوالمقصود بالأسماء الحسنى، وهو المقصود

١ ينظر: بدائع الفوائد – ابن القيم : ١ / ٢٤ دار الفكر / بيروت
والأسماء الحسنى ومناسبتها للآيات التي ختمت بها من أول سورة المائدة الى آخر سورة المؤمنون – محمد مصطفى آيدين ص٤١ – ماجستير كلية الدعوة واصول الدين – جامعة ام القرى – ١٩٨٩ م .

٢ التحرير والتنوير: ٢٨ / ١٢٦.

بالحصر في تسعة وتسعين في الحديث الشريف .
– أن ماعدا لفظ الجلالة، وعدا التسعة والتسعين المشهورة، أولى أن يقتصر إطلاق لفظ (الصفات) عليه. أما اعتبارها أسماء لله فهو من قبيل التوسع في الإطلاق.[1]

هذا. ويحقق ترتيب أسماء الله تعالى وصفاته أسرارا ونكاتا بلاغية؛ تختلف باختلاف ترتيبها وتباين السياق الذي يتضمنها، هذه الأسرار يعجز الإنسان عن حصرها والإحاطة بها، لكن المحاولات قد تعددت لبيان بعض الأسرار والنكات البلاغية التي كفلت لها ميزات أسلوبية لهذا البيان الحكيم المعجز .

وفيما يأتي تحليل للآيات التي تندرج تحت هذا المبحث، مرتبة بحسب ترتيب السور التي اشتملت عليها في الذكر الحكيم، فأقول وبالله التوفيق، ومنه العون والسداد :

= ففي سياق الحديث عن صفات الله الذاتية المتعلقة بالتفضيل على الخلائق، والتأكيد على استحقاقه – تعالى – بالحمد جاء قوله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)) بدءا أقول: إن عمود سورة الفاتحة ومحورها « توحيد الربوبيَّة »، وهو ظاهر

---

١ ينظر / أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة ا د /أحمد مختار عمر – ص ٣ ، ٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب– طبعة خاصة من عالم الكتب من مكتبة الأسرة ٢٠٠٠م.
٩٢ الوحدة البنائية للقرآن المجيد – طه جابر العلواني : ص ٣٩– دار الشروق – ٢٠٠٥م.

في الآيات الثلاثة الأولى، لتأتي الآيتان الرابعة والخامسة في « توحيد الألوهيّة »، ثم التلقين بالدعاء بالهداية .

أي: أن يكون القرآن هدي إلى الصراط المستقيم، وسلوك سبيل الموحدين الذين تزكت أنفسهم بالتوحيد، وصاروا مؤهَّلين للاستخلاف، لا أولئك الذين غضب الله عليهم؛ لكفرهم وشركهم، ولا الذين اخطأوا سبيل التوحيد؛ فَضَلُوا.

وقد اشتمل القسم الأول من سورة الفاتحة الذي قيل نزل في مكة على مجموعة متتابعة من صفات الله بعد البدء باسم الجلالة المفرد المقترن بالحمد (الحمد لله) هي: (رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين): فبعد إثبات الربوبية المطلقة لله – تعالى –، وهي تستلزم معظم القدرة وحرية الإرادة والتصرف، وتحمل في طياتها معاني الرهبة والخشية، أتْبَعَهُ ب (الرحمن الرحيم)،وهما صفتان تشتملان على جميع أنواع الرحمة؛ فتكون الآيات قد جمعت بين الرهبة من الله والرغبة إليه، وختمت الصفات بمالكية يوم الدين. أي: يوم الحساب والجزاء على الأعمال؛ لأنه في هذا اليوم تنهار كل دعاوي المنازعة في الملك (كما حدث من فرعون ونمرود وغيرهما)، حيث لا يكون مالك ولا قاض ولا مُجَازٍ غير الله – تعالى –، والتلاحم واضح بين هذه الصفات في تتابعها الفريد، وفي اشتمالها على الكثير من الصفات الإلهية على سبيل النص أو الاستلزام .[1]

---

١ ينظر: أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة – أ.د / أحمد مختار عمر – ص ١٢٣ ، ١٢٤ – طبعة خاصة من عالم الكتب لمكتبة الأسرة – ٢٠٠٠ م .

وهذا التتابع لابد أن تكون وراءه أسرار بلاغية، لا يمكن أن تحصل لو فُض أو اخْتُلِفَ هذا الترتيب، ولأهل العلم في هذا الترتيب كلام كثير، والتحقيق يقتضي أن يرد النظم على هذا الوجه ولا يجوز غيره؛ لأن اسم الجلالة (الله) اسم للذات الإلهية باعتبار أن الكل منه وإليه وجودا وعدما وماهية . و(الرحمن) اسم له باعتبار إفاضة الرحمة العامة. أعني: الوجود على الممكنات.

و(الرحيم) اسم له باعتبار تخصيص كل ممكن بحصة من الرحمة، وهي الوجود الخاصوما تبعه من وجود كمالاته. فلو لم يورد كذلك لم يكن على النهج الواقع المحقق ذوقا وشهودا عقلا ووجودا. وأيضا لما كان المقصود تعليم وجه التيمن بأسمائه الحسنى وتقديمها عند كل ملم؛ كان المناسب أن يبدأ من الأعلى فالأعلى؛ إرشادا لمن يقتصرعلى واحدأن يقتصر على الأولى فالأولى، وتقريرا في ذهن السامع أوجه التنزيل أولا فأولا.[١]

وإنما ختم سبحانه هذه الأوصاف بهذا الوصف؛ إشارة إلى الإعادة كما افتتح بما يشير إلى الإبداء، وفي إجرائها عليه تعليل لإثبات ما سبق وتمهيدا لِمَا لَحِقَ .

وفيه إيماء إلى أن الحمد ليس ليس مجرد الحمد. بل مع العلم بصفات الكمال ونعوت الجلال، وهذا أمهاتها، ولم تك تصلح إلا له، ولم يك يصلح إلا لها .

---

١ روح المعاني : ١/ ٦٣– دار إحياء التراث العربي / بيروت – (د. ت).

يقول الألوسي في وجه ترتيب هذه الصفات بعد ذكر اسم الذات الجامع لصفات الكمال؛ إنما كان إشارة إلى أن الذي يحمده الناس ويعظمونه إنما يكون حمده وتعظيمه لأحد أمور أربعة : -

إما لكونه كاملا في ذاته وصفاته وإن لم يكن منه إحسان إليهم.

- وإما لكونه محسنا إليهم ومتفضلا عليهم.
- وإما لأنهم يرجون لطفه وإحسانه في الاستقبال.
- وإما لأنهم يخافون من كمال قدرته.

فهذه هي الجهات الموجبة للحمد والتعظيم؛ فكأنه - سبحانه وتعالى - يقول: يا عبادي إن كنتم تحمدون وتعظمون للكمال الذاتي والصفاتي؛ فاحمدوني؛ فإني أنا الله. وإن كان للإحسان والتربية والإنعام؛ فإني انا رب العالمين. وإن كان للرجاء والطمع في المستقبل؛ فإني أنا الرحمن الرحيم. وإن كان للخوف؛ فإني أنا مالك يوم الدين.[١]

ويلخص الفخر الرازي - رحمه الله - وجه بلاغة ترتيب تلك الصفات بقوله : " إنه - تعالى- ذكر في هذه السورة من أسماء نفسه خمسة: الله، والرب، والرحمن، والرحيم، والمالك؛ والسبب فيه كأنه يقول لك: خلقتك أولا فأنا إله، ثم ربيتك بوجوه النعم فأنا رب، ثم عصيت فسترت عليك فأنا رحمن، ثم تبت فغفرت لك فأنا رحيم، ثم لابد من إيصال الجزاء إليك فأنا مالك يوم الدين .

فقد جاء هذا الترتيب بأحسن صورة حيث لا يتصور أحسن من هذا

---

١ المرجع السابق: ١ / ٨٥ ، ٨٦.

الترتيب.

وقد أخطأ مكي فيما نقله عنه أبو حيان من أن قوله تعالي في فاتحة الكتاب الرحمان الرحيم مؤخر يراد به التقديم تقديره (الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين) وعلل ذلك بقوله: " وانما قلنا بالتقديم؛ لأن مجاورة الرحمة بالحمد أولى ومجاورة الملك بالملك أولي ".

ورد عليه أبو حيان بما يشفي قائلا: " وكلام مكي مدخول من غير وجه، ...

والترتيب القرآني جاء في غاية الفصاحة؛ لأنه - تعالى - وصف نفسه بصفة الربوبية، وصفة الرحمة، ثم ذكر شيئين: أحدهما: ملكه يوم الجزاء.

والثاني: العبادة، فناسب الربوبية للملك، والرحمة للعبادة، فكان الأول للأول، والثاني للثاني".[1] ومن ثَم فإن البدء بلفظ { الله } في الترتيب؛ لأنه العلم المشهور المختص بالعبودية المتفرد بالألوهية، كما أنه جاء جرياً على عادة العرب في أنهم إذا أرادوا الخبرعن مخبر عنه أن يقدموا اسمه، ثم يتبعوه صفاته ونعوته، كما أن في ذلك تأكيدا على رحمة الله العامة والخاصة لعباده؛ فـ(الرحمن) يتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها. و(الرحيم) جاء تتميماً ليتناول ما دقّ منها ولطف .

١ التفسير الكبير- الفخر الرازي:١/ ٢٤٥- دار الفكر للطباعة والنشر- الطبعة الأولى- ١٩٨١م؛ وينظر: البحر المحيط - أبو حيان الأندلسي: ١ / ١٣٣ - تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٩٣م؛ والأبعاد الجمالية للتقديم والتأخيرفي سورة الفاتحة- ص ١٣١.

و(الرحمن الرحيم): اسمان من أسماء الله متضمنان صفتين من صفاته، وهما مأخوذان من الرحمة. الرحمن عند بعض العلماء مبالغة في الرحمة، فهو أشد مبالغة من الرحيم ولذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا، ويقولون: إن الزيادة في البناء لزيادة المعنى. فقدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه، والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى كقولهم: فلان عالم نحرير، وشجاع باسل، وجواد فياض. لما قال (الرحمن) تناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها، أردفه (الرحيم) كالتتمة والرديف ليتناول ما دق منها ولطف.[1]هذا من جانب المعنى.

أما من جهة اللفظ فبما أن (الميم) قريبة المخرج من حرف (النون) فتشكل فاصلة عذبة مع رؤوس الآيات الأخرى المختومة ب (ين)، فلو حصل تقديم وتأخير بين المفردتين أي: إذا قلنا: (الرحيم الرحمن)؛ لاختل إيقاع الجملة؛ ولزالت خفتها وطراوتها.[2]

والتعبير بقوله: (ربّ العالمين) بالجر على أنه صفة لله، فإن إضافته حقيقة مفيدة للتعريف على كل حال، ضرورة تعيُّن إرادة الاستمرار. والتعبير بهذه الصفة؛ للدلالة على معنى المالك المُرَبِي؛ فهو مالك الخلق ومربيهم بنعمه وسائس أمورهم ومبلغها غاية كمالها، وجاء وصفاً شاملاً للعالمين، فلم يقل: خالق العالمين؛ لأن الخلق جميعهم مفتقرون إليه؛ ولكي تتجه العوالم كلها إلى ربّ واحد تقرّ له بالسيادة المطلقة؛ ثم ليطمئن ضمير هذه العوالم إلى رعاية

---

١ ينظر: الكشاف: ١ / ٨ .

٢ ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم – د/ منير محمود المسيري : ص ١٥٨ – مكتبة وهبة – القاهرة – الطبعة الأولى – ٢٠٠٥م.

الله الدائمة وربوبيته القائمة .

فلفظة " الرب ": مصدر " ربّ يربه رباً " أي: رباه وسَاسَهُ، لا من (ربه) بمعنى: ملكه؛ لأنه الأظهر والأنسب ههنا؛ إذ المراد أنه مدبر الخلائق وسائس أمورها ومبلغها غاية كمالها.

ولأنه لو حمل على معنى المالك؛ لكان قوله تعالى بعد ذلك: (مالك يوم الدين) كالتأكيد، والتأكيد خلاف الأصل ولا داعي إليه هنا. والرب يطلق في لغة العرب على المالك، والسيد، والمصلح، والمُربي، والمنعم بما أسبغ علينا من نعمه .

وكلمة الرب تنبيه على أن جميع المخلوقات مفتقرة إليه في حال حدوثها وفي حال بقائها إلى نعمه وإحسانه .

وعليه فإن سر الترتيب بين هاتين الصفتين المفردتين ف(الله) هوالأصل و(الرب) هوالمالك، والمالكية تأتي في مرحلة متأخرة عن الألوهية؛ ففي البداية يخلق الإنسان ثم يملك. وفي مجيء (رب العالمين) نعتا للفظ الجلالة (الله) ومرتبا بعده؛ دلالة على أن وصف المعبود بالربوبية في مقام الدعاء والثناء أقرب لدر ثدي الإجابة وأقوى لتحريك عرق الرحمة.[1]

وفي اقترانه بالوصفين { الرحمن الرحيم }؛ تنبيه على أن الذي يستحق

١ ينظر:الأبعاد الجمالية للتقديم والتأخير في سورة الفاتحة – رسول بلاوي: ص ١٢٩– بحث منشور في مجلة الكلية الإسلامية الجامعة – العدد الحادي والأربعون – ٢٠١٦م؛ ومن بلاغة آيات الدعاء في القرآن الكريم – د/ يحي بن محمد عطيف: ٧١٦ – بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها – الجزء الخامس عشر – ١٤٢٤هـ .

أن يستعان به في جميع الأمورهو الله المعبود المتصف بالألوهية الرحمن الرحيم .

والجمع بين الصفتين في الآية يتضمن تجانساً لفظياً بديعاً؛ لأنهما مشتقان من الرحمة والتجانس بين الكلمات مظهرٌ من مظاهر الائتلاف بين المعاني والألفاظ الذي تميل إليه النفس وتتأثر به .

وإيراد الصفتين (الرحمن الرحيم) في عقب { ربّ العالمين } لأمرين: –

أحدهما: إن كان الرب بمعنى السيد أو بمعنى المالك أو بمعنى المعبود؛ كان صفة فعل للموصوف بها التصريف في المسود والمملوك والعابد بما أراد من الخيروالشر؛ فناسب ذلك الوصف بالرحمانية والرحيمية؛ لينبسط أمل العبد في العفو وإن زل، ويقوى رجاؤه إن هفا.

ولا يصح أن يكون الرب بمعنى الثابت ولا بمعنى الصاحب لامتناع إضافته إلى العالمين .– والآخر: إن كان بمعنى المُصْلِح؛ كان الوصف مشعراً بقلة الإصلاح؛ لأن الحامل للشخص على إصلاح حال الشخص رحمته له، ومضمون الجملة والوصف أن من كان موصوفاً بالربوبية والرحمة للمربوبين كان مستحقاً للحمد .

قال القرطبي: " إنما وصف نفسه تعالى – بعد (رب العالمين) بأنه (الرحمن الرحيم)؛ لأنه لما كان في اتصافه ب(رب العالمين) ترهيب؛ قرنه ب(الرحمن الرحيم)؛ لما تضمن من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه

والرغبة إليه؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع، كما قال تعالى: (نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم)[1]، وقال: (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول)[2] ". [3]

ويقول أبو حيان :" وبدئ بالرب؛ لأن له التصرف في المسود والمملوك والعابد بما أراد من خير أو شر، وأتبع بالرحمانية والرحيمية؛ لينبسط أمل العبد في الغفران إن ذل .

وإن كان الرب بمعني: المصلح؛ كان الوصف بالرحمة مشعراً بعلة هذا الإصلاح؛ لأن الحامل علي إصلاح حال الشخص هو الرحمة به، فيكون مضمون الجملة أن من كان موصوفا الربوبية والرحمة للمربوبين كان مستحقاً للحمد" [4].

وذكر الدكتور محمود المسيري أن مجيء صفة الربوبية متقدمة على صفة الرحمة؛ إنما كان بسبب تعلقها بما قبلها، وهو قوله: (الحمد لله)؛ فالله محمود لذاته، محمود لصفاته، محمود لنعمه وعطائه وقضائه، وهو- سبحانه - رب الجميع المؤمن والكافر؛ فهو الذي أوجدهم من العدم، ورباهم على الجود

---

١ الحجر / ٤٩ ، ٥٠.

٢ غافر / ٣ .

٣ ينظر: الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان – أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي: ١ / ٢١٥- تحقيق: د / عبد الله بن عبد المحسن القرطبي، ومحمد رضوان عرقسوسي- مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى/ ٢٠٠٦م.

٤ البحر المحيط : ١ / ١٩- دار الكتب العلمية بيروت .

والكرم، فكل النعم التي هي من عطاء الربوبية هي في الدنيا لخلقه جميعا، وقد أوجدها لهم قبل وجودهم؛ لتكون موجبات الحمد، موجودة قبل الوجود الإنساني. فالحمد لله رب العالمين على إيجادنا من عدم وإمدادنا من عدم، ثم يأتي (الرحمن الرحيم) في الفاتحة بمعنى: رحمة الله في ربوبيته لخلقه؛ حتى لا يفهم من هذه الربوبية أنها ربوبية ظلم.[1]

لذا فقد جاء التمهيد للصفة بما يقتضيه مدلولها ويختار الصفة من الصفات دون غيرها؛ لأن السياق لا يقبل غيرها؛ ولأن الصفة التي مهدت بها الآية أوالسورة تستدعي تلك الصفة أو الصفات المذكورة وفق ترتيب معين؛ فالربوبية لا تستجمع الصلاح إلا بالرحمة؛ لذلك أتبع صفة الرب بصفتي (الرحمن الرحيم) في قوله تعالى { الحمدلله رب العالمين . الرحمن الرحيم }؛ ترغيبا في لزوم حمده، وهي تتضمن تثنية تفصيل ما شمله الحمد أصلا. [2]

ففي ذكر الرحمة بعد ذكر (العالمين) وقبل ذكر (العالمين)- يعني في البسملة - وقبل ذكر (مالك يوم الدين) ينطوي على فائدتين عظيمتين في تفصيل مجاري الرحمة، ثم ذكر ما حاصله أن إحداهما ملتفت إلى خلق كل عالم من العالمين على أكمل أنواعه وأفضلها، وإيتائه كل ما احتاج إليه، وثانيا متلفت إلى ما بعده بالإشارة إلى الرحمة في المعاد يوم الجزاء عند الإنعام بالملك المؤيد.

أما عن مجيء صفة (مالك يوم الدين) عقب (الرحمن الرحيم)؛ لأنه

---

١ ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم : ص ١٥٦ (مرجع سابق).

٢ ينظر : نظم الدرر: ٢ / ٧٠٧ .

لما وصف الله نفسه بأنه (رب العالمين .الرحمن الرحيم)، وكانت الربوبية لا تتم إلا بالملك المفيد لتمام التصرف والعزة والهيبة والبطش؛ أتبع ذلك بقوله تعالى: (مالك يوم الدين)؛ ترهيباً وإشارة إلى تمام التصرف في الدنيا والآخرة؛ وكذلك خيف أن تكون تلك الأوصاف المتقدمة مشعرة بالتخفيف عن المكلفين عبء العصيان لما أمروا به، ومثيرة لأطماعهم في العفو عن زللهم بعد وضوح البينات؛ لذا كان مقتضى السياق التعقيب بذكر أنه صاحب الحكم يوم الجزاء؛ فجمع بين الترغيب والترهيب ليتناسب مع طبيعة النفس .[١]

وفي ضوء ما تم عرضه من أقوال أهل العلم آنفا يمكن استخلاص وجه التناسب البلاغي في ترتيب الصفات الإلهية المصدرة باسم الذات (الله) وتصدير السورة الكريمة بلفظ (الحمد) دون التسبيح؛ ذلك أن سورة الفاتحة تتحدث عن صفات الله الذاتية المتعلقة بالتفضيل على الخلائق بصورة الإنعام المذكور في السورة من نعمة الإيجاد والتربية، والإصلاح في قوله تعالى: (رب العالمين).

ونعمت الرحمة التي يعيش فيها الخلق في الدنيا وهي صفة الرحمن ونعمت الرحمة الخاصة بالمؤمنين وتعلقها بصفة الرحيم، ثم نعمة العود وتعلقها بقوله: (مالك يوم الدين) ؛ ولذلك كله بدأت السورة بالحمد الواجب لله على إنعامه المذكور في السورة بعد الحمد ولم تبدأ بالتسبيح، وإن كان مقدما عليه

١ ينظر: تفسير أبي السعود: ١ / ١٥ ؛ ونظم الدرر – البقاعي: ١ / ١٤، ٢ / ٧٠٧ ؛ وجماليات الخطاب القرآني وإعجازه البياني – دراسة بلاغية لآيات الأسماء الحسنى)– الباحث / محمد بوهند – ص ٣٠٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦– دكتوراه / مخطوط في كلية الآداب واللغات جامعة أبو بكر بلقايد/الجزائر ٢٠١٦– ٢٠١٧م .

في الذكر .[1]

وهذه الهيمنة المطلقة تؤكد استحقاقه للحمد، وتؤكد علي أن اقتران الحمد بهذه الصفات أحسن وأجمل اقتران؛ فالله محمود بذاته وصفاته على العموم، والله هو الاسم العلم علي ذاته، ثم محمود بكل معاني الربوبية (رب العالمين)؛ لأن من الأرباب من لا تحمد عبوديته، وهو محمود في كونه رحمن رحيم، محمود في رحمته؛ لأن الرحمة لو وضعت في غير موضعها تكون غير محمودة، وإذا لم تحمد لم تكن مدحاً لصاحبها، فهو محمود في رحمته يضعها حيث يجب أن توضع وهو محمود يوم الدين، محمود في تملكه وفي مالكيته (مالك يوم الدين) محمود في ملكه ذلك اليوم في قراءة: (مَلِك يوم الدين) .

فالحمد قد استغرق كل الأزمنة، لم يترك سبحانه زمنا لم يدخل فيه الحمد أبدا من الأزل إلى الأبد، فهو محمود قبل الخلق (الحمد لله)؛ حين كان تعالى ولم يكن معه شيء قبل حمد الحامدين، وقبل وجود الخلق والكائنات، وعند خلق العالَم (رب العالمين)، واستغرق الحمد وقت كانت الرحمة تنزل ولا تنقطع (الرحمن الرحيم)، واستغرق الحمد يوم الجزاء كله، ويوم الجزاء لا ينتهي لأن الجزاء لا ينتهي، فأهل النار خالدين فيها، أهل الجنة خالدين فيها لا ينقضي جزاؤهم، فاستغرق الحمد كل الأزمنة من الأزل إلي الأبد، فسبحان من { لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }[2].

---

١ ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم : ص ١٥٦؛ وينظر: النظم البلاغي في فاتحة الكتاب – نايف جاردو أحمد حسن الساداني : ص٨٨ ، ٨٩ – مجلة آداب الرافدين– العدد ٦٩– ٢٠١٤م .

٢ القصص / ٧٠.

= وفي سياق إثبات أن الله هو المَلِكُ الذي ليس في اتصافه بالمُلْك شائبة من معنى المُلْك، فمُلْكُهُ المُلك الكامل في حقيقته، الشامل في نفاذه؛ جاء قوله تعالى في سورة (المؤمنون) :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّـهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)[٢] .

فقد اشتمل قوله تعالى: (فَتَعَالَى اللَّـهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)على مجموعة متتابعة من الصفات المفردة بعد ذكر اسم الجلالة المفرد (الله)، هي (المَلِك – الحق – رب العرش – الكريمُ "على قراءة الرفع بجعل الكريم صفة للرب " [٣] .

وتدور آي سورة (المؤمنون) التي وردت فيها تلك الصفات حول محور تحقيق الوحدانية وإبطال الشرك ونقض قواعده، والتنويه بالإيمان وشرائعه. فكان افتتاحها بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلوا به من أصول الفضائل الروحية والعملية التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك. وأعقب ذلك بوصف خلق الإنسان أصله ونسله الدال على تفرد الله – تعالى – بالإلهية لتفرده بخلق الإنسان ونشأته؛ ليبتدئ الناظر بالاعتبار في تكوين ذاته ثم بعدمه بعد الحياة. ودلالة ذلك الخلق على إثبات البعث بعد الممات وأن الله

---

١ ينظر: (لمسات بيانية في نصوص من التنزيل)– د / فاضل صالح السامرائي: ص٤٠ ، ٤١– دار عمار – الطبعة الثالثة / ٢٠٠٣م .

٢ المؤمنون / ١١٥ ، ١١٦ .

٣ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – أبو السعود بن محمد العمادي : ٤ / ٨٨ – تحقيق/ عبد القادر عطا – مطبعة السعادة – الناشر مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.

لم يخلق الخلق سدى ولعبا .[1]

وقد جاءت (الفاء) في قوله:{ فتعالى الله الملك الحق }؛ للإسراع بضرورة تقديس الله – تبارك وتعالى – أن يخلق شيئا عبثا؛ فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك. كما أنه الملك الحق؛ لأنه الثابت الذي لايزول ولايزول ملكه ، وهو الملك الحق؛ لأنه المسيطر الحق الذي لا إله إلا هو، صاحب العزة والسلطان، (لا إله إلا هو)؛ فإن كل ما عداه عبيده تعالى . .[2]

وقد تناغم هذا مع التعريف الوارد في (المَلِك) وفي إفادته للجنس. والمعنى: أن الله هو الملك الذي ليس في اتصافه بالملك شائبة من معنى الملك، فملكه الملك الكامل في حقيقته، الشامل في نفاذه. و(الحق) : ما قابل الباطل، ومفهوم الصفة يقتضي أن ملك غيره باطل، أي: فيه شائبة الباطل لا من وجهة الجور والظلم؛ لأنه قد يوجد ملك لا جور فيه ولا ظلم كملك الأنبياء والخلفاء الراشدين وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخلفاء والأمراء، بل من جهة أنه ملك غير مستكمل حقيقة المالكية فإن كل من ينسب إليه الملك عدا الله – تعالى – هو مالك من جهة ومملوك من جهة؛ لما فيه من نقص واحتياج؛ فهو مملوك لما يتطلبه من تسديد نقصه بقدر

---

١ ينظر: التحرير والتنوير :١٨ / ٦ ، ٧ .

٢ ينظر: من هدي القران الكريم : تفسير بلاغي لسورة المؤمنون د/ بسيوني فيود– مطبعة السعادة /اولى ١٩٨٩م؛من الدراسات البلاغية للقران الكريم (سورة المؤمنون نموذج تطبيقي). بحث مقدم من د/ محمود عبدالحميد السقا ص ٢٧٩ ،٢٨٠ – كلية التربية / جامعة طنطا منشور في مجلة كلية الاداب – العدد ٢٢، ٢٠٠٩ م

الحاجة ومن استعانة بالغير لجبر احتياجه فذلك ملك باطل؛ لأنه ادعاء ملك غير تام.

والتعالي: مبالغة في العلو. وأتبع ذلك بما هو دليل عليه وهو انفراده بالإلهية وذلك وصف ذاتي، وبأنه مالك أعظم المخلوقات، أعني: العرش وذلك دليل عظمة القدرة.

و(الكريم) بالرفع صفة لله .[1]

فلما كان التقدير: " ليس الأمر كما حسبتم "؛ علل ذلك بقوله: { فتعالى الله } أي: علا الذي له الجلال والجمال علواً كبيراً عن العبث؛ ثم وصفه بما ينافي العبث فقال: { الملك } أي: المحيط بأهل مملكته علماً وقدرة وسياسة وحفظاً ورعاية.

ولما كان بعض ملوك الدنيا قد يفعل ما ينافي شِيَم الملوك من العبث بما فيه من الباطل؛ أتبع ذلك بصفة تنزهه عنه فقال: { الحق }. أي: الذي لا تطرق للباطل إليه في شيء من ذاته ولا صفاته، فلا زوال له ولا لملكه؛ فأنّى يأتيه العبث ؟!.

ولما كان (الحق) من حيث هو قد يكون له ثان؛ نفى ذلك في حقه – تعالى – بقوله: { لا إله إلا هو } فلا يوجد له نظير أصلاً في ذات ولا صفة، ومن يكون كذلك يكون حائزاً لجميع أوصاف الكمال، وخِلَال الجلال والجمال، متعالياً عن سمات النقص، والعبث من أدنى صفات النقص؛ لخلوه عن الحكمة

---

١ ينظر: التحرير والتنوير : ١٨ / ١٣٥.

التي هي أساس الكمال.

ثم زاد في التعيين والتأكيد للتفرد بوصفه بصفة لا يدعيها غيره فقال: { رب العرش } أي: السرير المحيط بجميع الكائنات، العالي عليها علواً لا يدانيه شيء.

ثم وصف نفسه بالكرم – جل في علاه – على قراءة الرفع (الكريم)؛ لأن الحديث في سياق الحكم بالعدل والتنزه عن العبث ؛ والمعنى: أي الذي تنزل منه الخيرات الحاصلة للعباد، والكريم من ستر مساوىء الأخلاق بإظهار معاليها وتنزه عن كل دناءة؛ قال القزاز: وأصل الكرم في اللغة الفضل والرفعة.[١]

= وفي سياق تحدي المعاندين في صدق القرآن، والتعريض بدعوتهم إلى الإقلاع عما هم فيه

جاء قوله – تعالى – في سورة غافر:

(حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ(٣)). تضمنت سورة غافر أغراضا من أصول الدعوة إلى الإيمان، فابتدئت بما يقتضي تحدي المعاندين في صدق القرآن كما اقتضاه الحرفان المقطعان في فاتحتها، ومقصودها هو الاستدلال على آخر التي قبلها– سورة الزمر– من تصنيف الناس في الآخرة إلى فريقين: أصحاب النار وأصحاب الجنة، وتوفية كل صنف ما يستحقه من العذاب والرحمة على سبيل العدل الإلهي، بأن فاعل ذلك له

---

١ ينظر: نظم الدرر : ١٣ / ١٩٥– ١٩٧؛ والبحر المحيط: ٦ / ٣٩١؛ وتفسير السراج المنير – الخطيب الشربيني : ٢ / ٥٦٧ – طبعة بولاق ١٢٩٩هـ .

العزة الكاملة والعلم الشامل، وقد بين ما يغضبه وما يرضيه، غاية البيان على وجه الحكمة وذكر صفتي العزة والعلم، والمغفرة والرحمة، وشدة العقاب والقوة المطلقة؛ لتناسب ذكر حال الفريقين السابقين في سورة الزمر.[1]

وقد اشتملت فاتحتها على ما يشير إلى جوامع أغراضها ويناسب الخوض في تكذيب المشركين بالقرآن، ويشير إلى أنهم قد اعتزوا بقوتهم ومكانتهم وأن ذلك زائل عنهم كما زال عن أمم أشد منهم، فاستوفت هذه الفاتحة كمال ما يطلب في فواتح الأغراض مما يسمى براعة المطلع أو براعة الاستهلال. .[2]

فذكر الحق – سبحانه – من أسمائه هذين الاسمين العظيمين؛ تنبيهاً على انفراده بموجبهما وأنه العزيز الحق القاهر للخلق لعلمه – تعالى – بأوجه الحكمة التي خفيت عن الخلق ما أخر الجزاء الحتم للدار الآخرة، وجعل الدنيا دار ابتلاء واختبار، مع قهره للكل في الدارين معاً، وكونهم غير خارجين عن ملكه وقهره، ثم قال تعالى { غافر الذنب وقابل التوب }؛ تأنيساً لمن استجاب بحمده، وأناب بلطفه، وجرياً على حكم الرحمة وتغليبها، ثم قال { شديد العقاب ذي الطول } ليأخذ المؤمن بلازم عبوديته من الخوف والرجاء، واكتنف قوله { شديد العقاب } بقوله {غافر الذنب وقابل التوب } وقوله { ذي الطول } وأشار سبحانه بقوله: { فلا يغررك تقلبهم في البلاد } إلى قوله قبل { وأورثنا الأرض

---

١ ينظر : البحر المحيط : ٧ / ٤٢٩ .

٢ ينظر: التحرير والتنوير : ٢٤ / ٧٧ .

} وكأنه في تقدير: إذا كانت العاقبة لك ولأتباعك فلا عليك من تقلبهم في البلاد، ثم بين تعالى أن حالهم في هذا كحال الأمم قبلهم، وجدالهم في الآيات كجدالهم، وأن ذلك لما حق عليهم من كلمة العذاب، وسبق لهم في أم الكتاب.

ولما تقدم آخر تلك أن كلمة العذاب حقت على الكافرين، فكان ذلك ربما أيأس من تلبس بكفر من الفلاح، وأوهمه أن انسلاخه من الكفر غير ممكن، وكان الغفران - وهو محو الذنب عيناً وأثراً - مترتباً على العلم به، والتمكن من الغفران وما رتب عليه من الأوصاف نتيجة العزة، دل عليهما مستعطفاً لكل عاص ومقصر بقوله: { غافر الذنب } أي بتوبة وغير توبة إن شاء، وهذا الوصف له دائماً فهو معرفة. قال السمين: نص سيبويه على أن كل ما إضافته غير محضة جاز أن تجعل محضة وتوصف بها المعارف إلا الصفة المشبهة، ولم يستثن الكوفيون شيئاً.

ولما أفهم تقديمه على التوبة أنه غير متوقف عليها فيما عدا الشرك، وكان المشركون يقولون: قد أشركنا وقتلنا وبالغنا في المعاصي فلا يقبل رجوعنا فلا فائدة لنا في إسلامنا، رغبهم في التوبة بذكرها وبالعطف بالواو الدالة على تمكن الوصف إعلاماً بأنه سبحانه لا يتعاظمه ذنب فقال: { وقابل التوب } وجرد المصدر ليفهم أن أدنى ما يطلق عليه الاسم كاف وجعله اسم جنس كأخواته أنسب من جعله بينها جمعاً كتمر وتمرة. ولما كان الاقتصار على الترغيب بما أطمع عذر المتمادي من سطوته، فقال معرياً عن الواو لئلا يؤنس ما يشعر به كل من العطف والصفة المشبهة من التمكن، وذلك إعلاماً بخفي لطفه في أن رحمته سبقت غضبه، وأنه لو أبدى كل ما عنده من العزة لأهلك

كل من عليها كما أشير إليه بالمفاعلة في{ولويؤاخذ الله الناس بظلمهم}[1] فإن الفعل إذا كان بين اثنين كان أبلغ: { شديد العقاب } على أن تنكيره وإبهامه – كما قال الزمخشري – للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر، لزيادة الإنذار وهي أخفى من دلالة الواو لو أوتي بها.

ولما أتم الترغيب بالعفو والترهيب من الأخذ، أتبعه التشويق إلى الفضل، فقال معرياً عن الواو لأن التمام لا يقتضي المبالغة، والحذف غير مخل بالغرض فإن دليل العقل قائم على كمال صفاته سبحانه: { ذي الطول } أي: سعة الفضل والإنعام والقدرة والغنى والسعة والمنة، لا يماثله في شيء من ذلك أحد ولا يدانيه، ثم علل تمكنه في كل شيء من ذلك بوحدانيته فقال: { لا إله إلا هو }، ولما أنتج هذا كله تفرده، أنتج قطعاً قوله:{إليه} أي وحده {المصير}أي: في المعنى في الدنيا، وفي الحس والمعنى في الآخرة؛ ليظهر كل من هذه الصفات ظهوراً تاماً، بحيث لا يبقى في شيء من ذلك لبس، فإنه لا يصح في الحكمة أن يبغي أحد على العباد ثم يموت في عزة من غير نقمة فيضيع ذلك المبغي عليه؛ لأن هذا أمر لا يرضى أقل الناس أن يكون بين عبيده.[2]

هذا. وقد أجريت على اسم الله ستة صفات معارف، بعضها بحرف التعريف وبعضها بالإضافة إلى معرف بالحرف. ووصف الله بوصفَيْ (العزيز العليم)هنا تعريض بأن منكري تنزيل الكتاب منه مغلوبون مقهورون، وبأن الله

١ النحل / ٦١ .

٢ ينظر: نظم الدرر: ١٧ / ٣ – ٦.

يعلم ما تكنه نفوسهم فهو محاسبهم على ذلك، ورمز إلى أن القرآن كلام العزيز العليم فلا يقدر غير الله على مثله ولا يعلم غير الله أن يأتي بمثله. وهذا وجه المخالفين بين هذه الآية ونظيرتها من أول سورة الزمر التي جاء فيها وصف (العزيز الحكيم)، على أنه يتأتى في الوصف بالعلم ما تأتي في بعض احتمالات وصف (الحكيم) في سورة الزمر. ويتأتى في الوصفين أيضا ما تأتى هنالك من طريقي إعجاز القرآن.

وفي ذكرهما رمز إلى أن الله أعلم حيث يجعل رسالته وأنه لا يجاري أهواء الناس فيمن يرشحونه لذلك من كبرائهم (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم).

وفي إتباع الوصفين العظيمين بأوصاف (غافر الذنب)، و(قابل التوب)، (شديد العقاب) ، (ذي الطول) ترشيح لذلك التعريض كأنه يقول: إن كنتم أذنبتم بالكفر بالقرآن فإن تدارك ذنبكم في مكنتكم لأن الله مقرر اتصافه بقبول التوبة ويغفران الذنب فكما غفر لمن تابوا من الأمم فقبل إيمانهم يغفر لمن يتوب منكم.

وتقديم (غافر) على (قابل التوب) مع أنه مرتب عليه في الحصول؛ للاهتمام بتعجيل الإعلام به لمن استعد لتدارك أمره فوصف (غافر الذنب وقابل التوب) تعريض بالترغيب، وصفتا (شديد العقاب ذي الطول) تعريض بالترهيب.

والتوب: مصدر تاب، والتوب بالمثناة والثوب بالمثلثة والأوب كلها بمعنى الرجوع، أي الرجوع إلى أمر الله وامتثاله بعد الابتعاد عنه. وإنما عطفت

صفة (وقابل التوب) بالواو على صفة (غافر الذنب) ولم تفصل كما فصلت صفتا (العليم غافر الذنب) وصفة (شديد العقاب) إشارة إلى نكتة جليلة وهي إفادة أن يجمع للمذنب التائب بين رحمتين بين أن يقبل توبته فيجعلها له طاعة، وبين أن يمحو عنه بها الذنوب التي تاب منها وندم على فعلها، فيصبح كأنه لم يفعلها. وهذا فضل من الله.

وقوله (شديد العقاب) إفضاء بصريح الوعيد على التكذيب بالقرآن لأن مجيئه بعد قوله (تنزيل الكتاب من الله) يفيد أنه المقصود من هذا الكلام بواسطة دلالة مستتبعات التراكيب.

والمراد ب(غافر) و (قابل) أنه موصوف بمدلوليهما فيما مضى؛ إذ ليس المراد أنه سيغفر وسيقبل، فاسم الفاعل فيهما مقطوع عن مشابهة الفعل، وهو غير عامل عمل الفعل؛ فلذلك يكتسب التعريف بالإضافة التي تزيد تقريبه من الأسماء، وهو المحمل الذي لا يناسب غيره هنا. و(شديد) صفة مشبهة مضافة لفاعلها، وقد وقعت نعتا لاسم الجلالة اعتدادا بان التعريف الداخل على فاعل الصفة يقوم مقام تعريف الصفة فلم يخالف ما هو المعروف في الكلام من اتحاد النعت والمنعوت في التعريف واكتساب الصفة المشبهة التعريف بالإضافة هو قول نحاة الكوفة طردا لباب التعريف بالإضافة وسيبويه يجوز اكتساب الصفات المضافة التعريف بالإضافة إلا الصفة المشبهة لأن إضافتها إنما هي لفاعلها في المعنى لأن أصل ما تضاف إليه الصفة المشبهة أنه كان فاعلا فكانت إضافتها إليه مجرد تخفيف لفظي والخطب سهل.

و(الطول) يطلق على سعة الفضل وسعة المال، ويطلق على القدرة

كما في القاموس، وظاهره الإطلاق وأقره في تاج العروس وجعله من معنى هذه الآية، ووقوعه مع (شديد العقاب) ومزاوجتها بوصفي (غافر الذنب وقابل التوب)؛ ليشير إلى التخويف بعذاب الآخرة من وصف (شديد العقاب) ، وبعذاب الدنيا من وصف (ذي الطول) كقوله (أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون)[١]، وقوله (قل إن الله قادر على أن ينزل آية)[٢].

وأعقب ذلك بما يدل على الوحدانية وبأن المصير، أي: المرجع إليه تسجيلا لبطلان الشرك وإفسادا لإحالتهم البعث. .[٣]

والكلام هنا على تقدم (غافر الذنب) على (قابل التوب) وتقدمهما على (شديد العقاب)؛ وذلك لمناسبة ما قبله من إسناد نزول الكتاب إلى الله تعالى وما أنزله إلا رحمة للناس، فذكر صفة المغفرة وقبول التوبة متقدمة على صفة (شديد العقاب)؛ لأن نزول الكتاب إنما هو للرحمة، وكذلك تقدمت صفة (غافر الذنب) على صفة (قابل التوب) ليس من باب تقديم التخلية على التحلية كما ذكر الألوسي .[٤]

يقول الزمخشري: " فإن قلت: ما بال في قوله: { وقابل التوب }؟ قلت: فيها نكتة جليلة، وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات، وأن يجعلها محاءة للذنوب، كأن لم يذنب.

---

١ الزخرف / ٤٢.

٢ الأنعام / ٣٧.

٣ التحرير والتنوير ٢٤ / ٩ – ١٨ .

٤ ينظر: روح المعاني : ٢٤ / ٤٢ ؛ وينظر : تفسير الفخر : ٢٧ / ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩

كأنه قال: جامع المغفرة والقبول ".[1]

وأضاف الدكتور المسيري سرا آخر لتنسيق الصفات الواردة؛ فذكر أن المغفرة رحمة عامة، وقبول التوبة رحمة خاصة، فقدمت الرحمة العامة على الرحمة الخاصة، فغفران الذنوب عدا الشرك – كما هو معلوم – يرجع إلى مشيئة الله الذي قد يغفر الذنوب تكرما، ولو لم يكن هناك توبة، بينما قبول التوبة إنما يتعلق بالتائبين فحسب .[2]

فبمراجعة ترتيب هذه الصفات الأربع تجد { غافر الذنب وقابل التوب } يفتح باب رحمة الله لمن عاند تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم إذا فكر في الأوبة ، وأن مغفرة الذنب كما قلنا تعني مغفرة الكبائر بدون توبة إلا كبيرة الشرك ، فتأتيه { قابل التوب } وتفتح الباب لمن سقط في هذه الكبيرة . ثم يأتي { شديد العقاب } فيلوح بالانتقام ممن أصر ولج في عناده ، ثم يأتي {ذي الطول } فيتجاوز حالة الثواب والعقاب إلى حالة المن والعطاء المتسع لمن آمن ومن كفر ، وتأتي كلمة (ذي) بدل عظيم الطول أو كثير الطول ليلائم شديد العقاب لأن كلمة "ذي" تدل على ملازمة الطول وسعة العطاء ، وكل ذلك شامل لخلقه جميعا ، فكل من خلقه ربنا جعل سبحانه على نفسه رزقه { وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها } (هود :٦) . تأمل كلمة { على الله } ، وكيف أوجب على نفسه رزق كل دابة، وكيف بالإنسان الذي سخر له مافي السماوات

---

١ الكشاف : ٥ / ٣٢٨؛ وينظر: البحر المحيط : ٧ / ٤٣١ .

٢ ينظر: دلالات التقديم والتأخير في القران الكريم – د / المسيري ص ٥٩١ . (مرجع سابق)

وما في الأرض جميعا منـه، ثم أنـه لا يعطي من آمن بـه ومن كفر ومن والاه ومن عاداه إلا الله الواحد الأحد ، وبهذا تكون كلمة ذي الطول مهيأة لكلمة { لا إله إلا هو } ؛ ولو وقفت ، عند { ذي الطول } لجرى في خاطرك معنى { لا إلـه إلا هو } لأنـه لا تتسع نعمـه على كل خلقه المؤمن منهم وتالكافر إلا الواحد الأحد، ولو أعدت ترتيب الصفات وقلت العزيز العليم ذي الطول شديد العقاب غافر الذنب قابل التوب لما وجدت هذا التواصل الحي بين لا إلـه إلا هو كما تجده مع الترتيب الذي جاءت عليه الآيـة ، وكذلك { لا إلـه إلا هو } تهيئ النفس إلى قوله { وإليه المصير }، وأكرر أنك لو وقفت عند { لا إلـه إلا هو } لجرى في نفسك معنى { إليه المصير }؛ لأن المصير لا يكون إلا للواحد احد . ثم أن جملة { وإليه المصير } التي كانت نهاية الخبر الذي ابتدأ بتنزيل الكتاب وانتهى بهذا المصير هي فاصلة شاملة مستوعبة لهذا السطر المعجز الذي هو رأس السور التي اسمها حم، ولو تحركت به إلى الوراء وجدته ممسكا بآخر آيات الزمر من قوله تعالى: { ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون } إلى قولـه : { وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسلا منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالو بلا ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل أدخلو أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة } إلى قولـه : { وترى الملائكة حافين من حول العرش } إلى قوله جل شأنه { وإليه المصير } .

وإذا تحركت إلى الأمام وجدت (إليـه المصير) يلقاك عند يوم الآزفة، ويوم التلاق، وإذا القلوب لدى الحناجر، ونداء الذين كفروا لمقت الله أكبر من

مقتكم، ونجزي كل نفس بما كسبت، وهذا اللون من التماسك والتساند لا يوجد في كلام على هذا الحد الذي نراه .[1]

وقد ذكر المفسرون أن وقوع كلمة العقاب الشديد بين المغرفة والتوبة والطول تؤكد معنى سعة الرحمة وهذا ظاهر وقلناه ، إنما أعدته لأشير إلى ملمح في كلام النحاة كما قالو إن النكرة لما جاءت بين الصفت المعارف اكتسبت منها شيئا أجاز لها أن تكون صفة لمعرفة وهذا يعني من وجه أخر أن شديد العقاب لما جاء في آيات الرحمة أكتسب منها شيئا من الرحمة؛ لأن أمتصاص الكلمة من جارتها شيئا من الاعراب يفتح الباب لامتصاصها شيئا من المعنى، وليس هذا بعزيز في لغة العرب؛ لأن الاقتران له دلالاته التي يعرفها من يعرف اللسان والرحمة التي نراها في شدة العقاب رحمة ظاهرة؛ لأن الإنذار والتخويف وعرض صور العذاب ومقامع النار والثياب التي قطعت من النار وصب الحميم وهم يصطرخون فيها كل ذلك من آيات الرحمة ؛ لأنه كف وزجر الله – سبحانه وتعالى – حين يخوفنا من عقابه الشديد إنما يدعونا إلى رحمته التي فتح لها باب المغفرة وباب التوبة وباب الطول ولا يهلك على الله إلا هالك .[2]

= وفي سياق التذكير بجلال الله – تعالى – وصفاته العظيمة، وسعة قدرته وملكوته، وعموم تصرفه، ووجوب وجوده، وسعة علمه، جاء قوله تعالى في

---

١ ينظر: آل حم – غافر وفصلت : دراسة في أسرار البيان – أ.د / محمد أبو موسى : ص ٢٥، ٢٦ – مكتبة وهبة / ط أولى ٢٠٠٩ م .

٢ المرجع السابق: ص ٢٧

سورة الحديد :

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)).

فقد افتتحت السورة الكريمة بذكرتسبيح الله – تعالى – وتنزيهه؛ وهذا الافتتاح مؤذن بأن أهم ما اشتملت عليه إثبات وصف الله بالصفات الجليلة المقتضية أنه منزه عما ضل في شأنه أهل الضلال من وصفه بما لا يليق بجلاله، وأول التنزيه هو نفي الشريك له في الإلهية؛ فإن الوحدانية هي أكبر صفة ضل في كنهها المشركون والمانوية ونحوهم من أهل التثنية وأصحاب التثليث والبراهمة، وهي الصفة التي ينبئ عنها اسمه العَلَم – أعني : الله – ؛ لأن أصله الإله، أي: المنفرد بالإلهية.

وأتبع هذا الاسم بصفات ربانية تدل على كمال الله – تعالى –، وتُنزهه عن النقص؛ فكانت هذه الفاتحة براعة استهلال لهذه السورة؛ ولذلك أتبع اسمه العلم بعشر صفات هي جامعة لصفات الكمال وهي: (العزيز، الحكيم، له ملك السماوات والأرض، يحيي، ويميت، وهو على كل شيء قدير، وهو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وهو بكل شيء عليم).[١]
وما يدخل معنا في تلك الدراسة هو التعرض لبيان التناسب البلاغي لتنسيق الصفات الواردة في قوله : (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

---

١ ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧ / ٣٥٩ .

وهذا القول الكريم استئناف في سياق تبيين أن له ملك السماوات والأرض، بأن ملكه دائم في عموم الأزمان وتصرف فيهما في كل الأحوال، إذ هو الأول الأزلي، وأنه مستمر من قبل وجود كل محدث ومن بعد فنائه إذ الله هو الباقي بعد فناء ما في السماوات والأرض وذلك يظهر من دلالة الآثار على المؤثر فإن دلائل تصرفه ظاهرة للمتبصر بالعقل وهو معنى (الظاهر) كما يأتي، وأن كيفيات تصرفاته محجوبة عن الحس وذلك معنى (الباطن) تعالى كما سيأتي.

فضمير(هو) ليس ضمير فصل، ولكنه ضمير يعبر اسم الجلالة لاعتبارنا الجملة مستأنفة، ولو جعلته ضمير فصل لكانت أوصاف (الأول والآخر والظاهر والباطن) أخبار عن ضمير(وهو العزيز الحكيم). وقد اشتملت هذه الجملة على أربعة أخبار هي صفات لله تعالى. فأما وصف (الأول) فأصل معناه الذي حصل قبل غيره في حالة تبينها إضافة هذا الوصف إلى ما يدل على الحالة من زمان أو مكان، فقد يقع مع وصف (أول) لفظ يدل على الحالة التي كان فيها السبق، وقد يستدل على تلك الحالة من سياق الكلام، فوصف (الأول) لا يتبين معناه إلا بما يتصل به من الكلام ولا يتصور إلا بالنسبة إلى موصوف آخر وهو متأخر عن الموصوف ب (أول) في حالة ما.

وأشهر معاني الأولية هو السبق في الموجود، أي: في ضد العدم، ألا ترى أن جميع الأحوال التي يسبق صاحبها غيره فيها هي وجودات من الكيفيات، فوصف الله بأنه (الأول) معناه: أنه السابق وجوده على كل موجود وجد أو سيوجد، دون تخصيص جنس ولا نوع ولا صنف، ولكنه وصف نسبي غير

ذاتي. ولهذا لم يذكر لهذا الوصف متعلق بكسر اللام، ولا ما يدل على متعلق؛ لأن المقصود أنه الأول بدون تقييد.

ويرادف هذا الوصف في اصطلاح المتكلمين صفة (القدم).

واعلم أن هذا الوصف يستلزم صفة الغنى المطلق، وهي عدم الاحتياج إلى المخصص، أي مخصص يخصصه بالوجود بدلا من العدم؛ لأن الأول هنا معناه الموجود لذاته دون سبق عدم، وعدم الاحتياج إلى محل يقوم به قيام العَرَض بالجَوْهَر. ويستلزم ذلك انفراده تعالى بصفة الوجود؛ لأنه لو كان غير الله واجبا وجوده لما كان الله موصوفا بالأولية، فالموجودات غير الله ممكنة، والممكن لا يتصف بالأولية المطلقة؛ فلذلك تثبت له الوحدانية. ثم هذه الأولية في الوجود تقتضي أن تثبت لله جميع صفات الكمال اقتضاء عقليا بطريق الالتزام البين بالمعنى الأعم وهو الذي من تصور ملزومه وتصوره الجزم بالملازمة بينهما.

وأما وصف (الآخر) فهو ضد الأول، فأصله: هو المسبوق بموصوف بصفة متحدث عنها في الكلام أو مشار إليها فيه بما يذكر من متعلق به، أو تمييزه، على نحو ما تقدم في قوله (هو الأول) كقوله تعالى: (حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم) أي: أخراهم في الإدراك في النار، وهو وصف نسبي.

ووصف الله تعالى بأنه (الآخر) بعد وصفه بأنه (الأول) مع كون الوصفين متضادين يقتضي انفكاك جهة الأولية والآخرية، فلما تقرر أن كونه الأول متعلق بوجود الموجودات؛ اقتضى أن يكون وصفه ب(الآخر) متعلقا

بانتقال ذلك الوجود، أي: هو الآخر بعد جميع الموجودات في السماء والأرض، وهو معنى قوله تعالى (يرث الأرض ومن عليها) وقوله: (كل شيء هالك إلا وجهه).

فتقدير المعنى: " والآخر في ذلك ". أي: في استمرار الوجود الذي تقرر بوصفه بأنه الأول. وليس في هذا إشعار بأنه زائل ينتابه العدم؛ إذ لا يشعر وصف الآخر بالزوال لا مطابقة ولا التزاما، وهذا هو صفة البقاء في اصطلاح المتكلمين. فآل معنى (الآخر) إلى معنى الباقي ، وإنما أوثر وصف (الآخر) بالذكر أنه مقتضى البلاغة؛ ليتم الطباق بين الوصفين المتضادين. وقد علم عند المتكلمين أن البقاء غير مختص بالله – تعالى – وأنه لا ينافي الحدوث على خلاف في تعيين الحوادث الباقية، بخلاف وصف القدم بأنه مختص بالله – تعالى – ومتناف مع الحدوث. والجمع بين وصفي (الأول والآخر) فيه محسن الطباق.

و(الظاهر) الأرجح أنه مشتق من الظهور الذي هو ضد الخفاء؛ فيكون وصفه – تعالى – به مجازا عقليا؛ فإن إسناد الظهور في الحقيقة هو ظهور أدلة صفاته الذاتية لأهل النظر والاستدلال والتدبر في آيات العالم فيكون الوصف جامعا لصفته النفسية، وهي الوجود، إذ أدلة وجوده بينة واضحة ولصفاته الأخرى مما دل عليها فعلة من قدرة وعلم وحياة وإرادة، وصفات الأفعال من الخلق والرزق والإحياء والإماتة كما علمت في قوله (هو الأول) عن النقص أو ما دل عليها تنزيهه عن النقص كصفة الوحدانية والقدم والبقاء والغنى المطلق ومخالفة الحوادث، وهذا المعنى هو الذي يناسبه المقابلة بالباطل.

ويجوز أن يكون مشتقا من الظهور، أي: الغلبة كالذي في قوله تعالى: (إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم)، فمعنى وصفه تعالى ب(الظاهر) أنه الغالب.

وهذا لا يناسب مقابلته ب(الباطن) إلا على اعتبار محسن الإيهام. و(الباطن): الخفي. يقال: بطن، إذا خفي، ومصدره " بُطون ". ومعنى وصفه – تعالى – ب(باطن) وصف ذاته وكنهه؛ لأنه محجوب عن إدراك الحواس الظاهرة؛ قال تعالى : (لا تدركه الأبصار). والجمع بين وصفه ب(الظاهر) بالمعنى الراجح و(الباطن) كالجمع بين وصفه ب(الأول والآخر)، وفي الجمع بينهما محسن مطابقة.

وفائدة إجراء الوصفين المتضادين على اسم الله – تعالى – هنا التنبيه على عظم شأن الله – تعالى –؛ ليتدبر العالمون في مواقعها .

واعلم أن الواوات الثلاثة الواقعة بين هذه الصفات الأربع متحدة المعنى تقتضي كل واحدة منها عطف صفة.

وقال الزمخشري: الواو الأولى معناها الدلالة على أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولية والآخرية. والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأوليين ومجموع الصفتين الأخريين.[1]

وهذا التشبث لا داعي إليه ولا دليل عليه ولو أريد ذلك لقال: هو الأول

١ ينظر: الكشاف: ٦ / ٤٢ ، ٤٣ – مكتبة العبيكان – الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

الآخر، والظاهر الباطن، بحذف واوين. والمعنى الذي حاوله الزمخشري: تقتضيه معاني هاته الصفات بدون اختلاف معاني الواوات.[1] وإنما أوثر وصف (الآخر) بالذكر دون (الباقي)؛ لأنه مقتضى البلاغة ليتم الطباق بين الوصفين المتضادين (الأول والآخر) . والجمع بين وصفه ب(الظاهر) بالمعنى الراجح و(الباطن) كالجمع بين وصفه ب(الأول والآخر). وفي الجمع بينهما محسن المطابقة.

وفائدة إجراء الوصفين المتضادين على اسم الله – تعالى – هنا التنبيه على عظم شأن الله – تعالى –؛ ليتدبر العالمون في مواقعها .[2] فإنه – سبحانه –" لما أخبر بتمام القدرة، دل على ذلك بقوله: { هو } أي وحده { الأول } أي بالأزلية قبل كل شيء فلا أول له، والقديم الذي منه وجود كل شيء وليس وجوده من شيء لأن كل ما نشاهده متأثر لأنه حقير، وكل ما كان ما كان كذلك فلا بد له من موجد غير متأثر { والآخر } بالأبدية، الذي ينتهي إليه وجود كل شيء في سلسلة الترقي وهو بعد فناء كل شيء ولو بالنظر إلى ما له من ذاته فلا آخر له لأنه يستحيل عليه نعت العدم لأن كل ما سواه متغير، بنوع من التغيير جاز إعدامه، وما جاز إعدامه فلا بد له من معدم يكون بعده ولا يمكن إعدامه.

ولما كان السبق يقتضي البطون، والتأخر يوجب الظهور، وكانا أمرين

---

١ ينظر : التحرير والتنوير : ٢٧/ ٣٥٩ – ٣٦٣ ؛ والبحر المحيط : ٨ / ٢١٦ ، ٢١٧ .

٢ ينظر: التحرير والتنوير : ٢٧/ ٣٦٢ ،٣٦٣؛ وجماليات الخطاب القراني واعجازه البياني – دراسة بلاغية لأسماء الحسنى – الباحث /محمد بوهند – ص٣٣٩ – دكتوراه / مخطوط في كلية الاداب واللغات جامعة ابو بكر بلقايد / الجزائر ٢٠١٦ – ٢٠١٧ م .

متضادين لا يكاد الإنسان يستقل بتعلقهما في شيء واحد، نبه على اجتماعهما فيه، فقال مشيراً بالواو إلى تمام الاتصاف وتحققه: { والظاهر } أي بالأحدية للعقل بأدلته الظاهرة في المصنوعات بما له من الأفعال ظهوراً لا يجهله عاقل، وهو الغالب في رفعته وعلوه فليس فوقه شيء { والباطن } بالصمدية وعن انطباع الحواس وارتسام الخيال وتصور الفهم والفكر وبتمام العلم والحكمة بما له من العظمة في ذاته بكثرة التعالي والحجب بطوناً لا يكتنه شيء.

وقال القشيري: الأول بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء. الظاهر بلا خفاء، الباطن بنعت العلا وعز الكبرياء – انتهى، والعطف للدلالة كما أشير إليه على الإحاطة التامة لأنها لما كانت متضادة كانت بحيث لو أعريت عن الواو لربما ظن أن وجودها لا على سبيل التمكن، فلا تكون محيطة بل مقيدة بحيثية مثلاً؛ فجاءت الواو دلالة على تمكن الوصف وإحاطته، وإنه واقع بكل اعتبار ليس واحد من الأوصاف مكملاً لشيء آخر ولا شارحاً لمعناه؛ فهو أول على الإطلاق وآخر كذلك، وظاهر حتى في حال بطونه وباطن كذلك، وهذا على الأصل فإن صفاته- تعالى- محيطة فلا إشكال، إنما الإشكال عند الخلو من العطف فهو الأغلب في إيرادها كما آخر الحشر، ولعل ذلك مراد الكشاف بقوله: إن الواو الأولى معناها الدلالة على الجامع بين الصفتين الأولية والآخرية، أي جمعاً هو في غاية المكنة، والثالثة على أنه الجامع بين الظهور والخفاء، وأما الوسطى فعلى أنه الجامع بين مجموع الصفتين الأولين ومجموع الصفتين الأخيرتين، فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية. انتهى ".[1]

---

١ ينظر: نظم الدرر : ١٩ / ٢٥٥ ، ٢٥٦.

= وفي سياق تعريف المؤمنين بعظمة الله – تعالى – المقتضية للمزيد من خشيته، وبالصفات الحسنى الموجبة لمحبته، وزيادة في إرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطشه وجبروته

جاء قوله تعالى: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)) / الحشر .

اشتملت الآيات السابقة على قسم مهم من الأسماء والصفات الإلهية؛ فهي درس تربوي كبير للإنسان؛ لأنها تقول له: إذا كنت تطلب قرب الله، وتريد العظمة والكمال؛ فاقتبس من هذه الصفات، فلما أخبر سبحانه في أول السورة أن الكائنات أوجدت تسبيحه خضوعا لعزته وحكمته، ودل على ذلك بما تقدم إلى أن أسمعه الآذان الواعية بالأسماء الحسنى، دل على دوام اتصافه بذلك من يحتاج لما له من النقص من الخلق إلى التذكير؛ فعبر بالمضارع فقال:(يسبح). أي: يكرر التنزيه الأعظم من كل شائبة نقص على سبيل التجدد والاستمرار، وقد علم سر اتباع الأسماء الشريفة من غير عطف، وذاك أنه لما ابتدأ ب(هو) وأخبر عنه بالاسم العلم الأعظم المفرد المصون الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى، أتبعه تلك الأوصاف العلى من غير عطف؛ إعلاما بانه لا شيء منها يؤدي جميع معناه بالمفهوم المتعارف عند أهل اللغة؛ ولذلك جمع بعدها الأسماء؛ إشارة إلى أنه لا يجمع معناه إلا جميع الأوصاف المنزلة في كتبه والمأخوذة عن أوليائه التي استأثر بها في غيبه، وليس شيء مما ذكر ههنا

مضادا في المعنى الظاهري للآخر كالأول والآخر، حتي يظن لأجله نقص في المعنى بسبب ترك العطف، وأما ترتيبها هكذا فلأن كل اسم منها شارح لما خفي من الذي قبله ومبين للازمه، وموضح لما لاح أنه من مضمونه، وقد انعطف على افتتاحها وختامها وعانق ابتداؤها تمامها، ووفى مطلعها مقطعها، وزاد وبلغ الغاية من الإرشاد إلى سبيل الرشاد، فسبحان من أنزله برحمنه رحمة للعباد، وهاديا إلى الصواب والسداد.[١]

وبيان وجه إرجاع هذه الصفات الحسنى إلى ما يناسبها مما اشتملت عليه السورة ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: يتعلق بما يناسب أحوال المشركين وأحلافهم اليهود المتألبين على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين بالحرب والكيد والأذى، وأنصارهم من المنافقين المخادعين للمسلمين.

وإلى هذا القسم تنضوي صفة (لا إله إلا هو) وهذه الصفة هي الأصل في التهيؤ للتدبر والنظر في بقية الصفات، فإن الإشراك أصل الضلالات، والمشركون هم الذين يغرون اليهود، والمنافقون بين يهود ومشركين تستروا بإظهار الإسلام، فالشرك هو الذي صد الناس عن الوصول إلى مسالك الهدى .

وصفة (عالم الغيب) فإن من أصول الشرك إنكار الغيب الذي من آثاره إنكار البعث والجزاء، وعلى الاسترسال في الغي وإعمال السيئات وإنكار الوحي والرسالة. وهذا ناظر إلى قوله تعالى (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله...) الآية.

---

١ ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨ / ١٢٧؛ ونظم الدرر : ١٩ / ٤٨١، ٤٨٢؛ وجماليات الخطاب القراني وإعجازه البياني – دراسة بلاغية لأسماء الحسنى– ص٣٦٣ ، ٣٦٤ .

وكذلك ذكر صفات (الملك، والعزيز، والجبار، والمتكبر)؛ لأنها تناسب ما أنزله ببني النضير من الرعب والخزي والبطشة.
القسم الثاني: متعلق بما اجتناه المؤمنون من ثمرة النصر في قصة بني النضير، وتلك صفات:

(السلام المؤمن)؛ لقوله (فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب)، أي: لم يتجشم المسلمون للغنى مشقة ولا أذى ولا قتالا.
وكذلك صفتا (الرحمن الرحيم)؛ لمناسبتهما لإعطاء حظ في الفيء للضعفاء.
القسم الثالث: متعلق بما يشترك فيه الفريقان المذكوران في هذه السورة، فيأخذ كل فريق حظه منها، وهي صفات: (القدوس، المهيمن، الخالق، الباريء، المصور).

(له الأسماء الحسنى) تذييل لما عدد من صفات الله تعالى، أي: له جميع الأسماء الحسنى التي بعضها الصفات المذكورة آنفا.[1]

أما عن سر تنسيق الصفات الشريفة من غير عطف؛ فذاك لأنه – كما يرى البقاعي رحمه الله – لما ابتدأ بـ " هو " وأخبر عنه بالاسم العلم الأعظم المفرد المصون الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى، أتبعه تلك الأوصاف العلى من غير عطف؛ إعلاماً بأنه لا شيء منها يؤدي جميع معناه بالمفهوم المتعارف عند أهل اللغة، ولذلك جمع بعدها الأسماء؛ إشارة إلى أنه لا يجمع معناه إلا جميع الأوصاف المنزلة في كتبه والمأخوذة عن أوليائه التي استأثر بها في غيبه وليس شيء مما ذكر ههنا مضاداً في المعنى الظاهري للآخر

١ ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨ / ١٢٥، ١٢٦.

كالأول والآخر حتى يظن لأجله نقص في المعنى بسبب ترك العطف. وأما عن تنسيقها وترتيبها هكذا؛ فلأن كل اسم منها كما مضى شارح لما خفي من الذي قبله ومبين للازمه، وموضح لما ألاح أنه من مضمونه.[1]

فإنه لما تكرر في هذه السورة ذكر اسم الله وضمائره وصفاته أربعين مرة منها أربع وعشرون بذكر اسم الجلالة وست عشرة مرة بذكر ضميره الظاهر، أو صفاته العلية. وكان ما تضمنته السورة دلائل على عظيم قدرة الله وبديع تصرفه وحكمته.

وكان ما حوته السورة الاعتبار بعظيم قدرة الله إذ أيد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ونصرهم على بني النضير ذلك النصر الخارق للعادة، وذكر ما حل بالمنافقين أنصارهم وأن ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله وذلك بالثناء على المؤمنين بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم الذين نصروا الدين، ثم الأمر بطاعة الله والاستعداد ليمو الجزاء، والتحذير من الذين أعرضوا عن كتاب الله ومن سوء عاقبتهم، وختم ذلك بالتذكير بالقرآن الدال على الخير، والمعرف بعظمة الله المقتضية شدة خشيته عقب ذلك بذكر طائفة من عظيم صفات الله ذات الآثار العديدة في تصرفاته المناسبة لغرض السورة زيادة في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية للمزيد من خشيته. وبالصفات الحسنى الموجبة لمحبته، وزيادة في إرهاب المعاندين المعرضين من صفات بطشه وجبروته، ولذلك ذكر في هذه الآيات الخواتم للسورة من صفاته تعالى ما هو مختلف التعلق والآثار للفريقين حظ ما يليق به منها. وفي غضون ذلك كله دلائل على

---

١ ينظر: نظم الدرر: ١٩ / ٤٨٢.

بطلان إشراكهم ب؟ أصنامهم.

وابتدئ في هذه الصفات العلية بصفة الوحانية وهي مدلول (الذي لا إله إلا هو)، وهي الأصل فيما يتبعها من الصفات؛ ولذلك كثر في القرآن ذكرها عقب اسم الجلالة كما في آية الكرسي. وفاتحة آل عمران. وثني بصفة عالم الغيب لأنها التي تقتضيها صفة الإلهية؛ إذ علم الله هو العلم الواجب وهي تقتضي جمع الصفات إذ لا تتقوم حقيقة العلم الواجب إلا بالصفات السلبية، وإذ هو يقتضي الصفات المعنوية، وإنما من متعلقات علمه أمور الغيب؛ لأنه فارق به علم الله- تعالى - علم غيره. وذكر معه علم الشهادة؛ للاحتراس توهم أنه يعلم الحقائق العالية الكلية فقط. كما ذهب إليه فريق من الفلاسفة الأقدمين؛ ولأن التعريف في (الغيب والشهادة) للاستغراق. أي: كل غيب وشهادة، وذلك مما لا يشاركه فيه غيره. وهو علم الغيب والشهادة، أي الغائب عن إحساس الناس والمشاهد لهم. فالمقصود فيها بمعنى اسم الفاعل، أي: عالم ما ظهر وما غاب عنهم من كل غائب يتعلق به العلم على ما هو عليه.

ووجه تعقيب صفة عموم العلم بصفة الرحمة؛ أن عموم العلم يقتضي أن لا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه وحاجتهم إليه، فهو يرحم المحتاجين إلى رحمته ويهمل المعاندين إلى عقاب الآخرة، فهو رحمان بهم في الدنيا.

وعقب وصفا الرحمة بوصف (الملك)؛ للإشارة إلى أن رحمته فضل؛ وأنه مطلق التصرف كما وقع في سورة الفاتحة.

وعقب ب(القدوس) وصف (الملك)؛ للاحتراس إشارة إلى أنه منزه عن نقائض الملوك المعروفة من الغرور، والاسترسال في الشهوات ونحو ذلك من نقائض النفوس.

و(السلام) مصدر بمعنى المسالمة وصف الله – تعالى – به على طريقة الوصف بالمصدر للمبالغة في الوصف، أي ذو السلام، أي السلامة، وهي أنه تعالى سالم الخلق من الظلم والجور. وفي الحديث إن الله هو السلام ومنه السلام.

وبهذا ظهر تعقيب وصف (الملك) بوصف (السلام) فإنه بعد أن عقب ب(القدوس) للدلالة على نزاهة ذاته، عقب ب(السلام)؛ للدلالة على العدل في معاملته الخلق، وهذا احتراس أيضا.

وذكر وصف (المؤمن) عقب الأوصاف التي قبله إتمام للاحتراس من توهم وصفه – تعالى –ب(الملك) أنه كالملوك المعروفين بالنقائص. فأفيد أولا نزاهة ذاته بوصف (القدوس)، ونزاهة تصرفاته المغية عن الغدر والكيد بوصف (المؤمن)، ونزاهة تصرفاته الظاهرة عن الجور والظلم بوصف (السلام).

وتعقيب (المؤمن) ب(المهيمن)؛ لدفع توهم أن تأمينه عن ضعف أو عن مخافة غيره، فأعلموا أن تأمينه لحكمته مع أنه رقيب مطلع على أحوال خلقه فتأمينه إياهم رحمة بهم.

و(العزيز): الذي لا يغلب ولا يذله أحد، ولذلك فسر بالغالب.

و(الجبار): القاهر المكره غيره على الانفعال بفعله، فالله جبار كل مخلوق على الافعال لما.

و(المتكبر): الشديد الكبرياء، أي العظمة والجلالة. وأصل صيغة التفعل ووجه ذكر هذه الصفات الثلاث عقب صفة (المهبيمن) أن جميع ما ذكره آنفا من الصفات لا يؤذن إلا باطمئنان العباد لعناية ربهم بهم وإصلاح أمورهم وأن صفة (المهيمن) تؤذن بأمر مشترك فعقبت بصفة (العزيز)؛ ليعلم الناس أن الله غالب لا يعجزه شيء. واتبعت بصفة (الجبار) الدالة على أنه مسخر المخلوقات لإرادته ثم صفة (المتكبر) الدالة على أنه ذو الكبرياء يصغر كل شيء دون كبريائه فكانت هذه الصفات في جانب التخويف كما كانت قبلها في جانب الإطماع.

الخالق في صفة الله بمعنى المحدث الأشياء عن عدم، وبهذا يكون الخلق أعم من التصوير. ويكون ذكر (الباري) و(المصور) بعد (الخالق)؛ تنبيها على أحوال خاصة في الخلق. قال تعالى: (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) على أحد التأويلين.

وقال الغزالي في المقصد الأسني: (الخالق الباريء المصور) قد يظن أن هذه الأسماء مترادفة ولا ينبغي أن يكون كذلك بل كل ما يخرج من العدم إلى الوجود يفتقر إلى تقدير أولا وإلى الايجاد على وفق التقدير ثانيا وإلى التصوير بعد الإيجاد ثالثا. والله خالق من حيث أنه مقدر وبارئ من حيث إنه مخترع موجود، ومصور من حيث إنه مرتب صور المخترعات أحسن ترتيب اه. فجعل المعاني متلازمة وجعل الفرق بينها بالاعتبار، ولا أحسبه ينطبق على مواقع

استعمال هذه الصفات.

وإنما ذكرت هذه الصفات متتابعة؛ لأن من مجموعها يحصل تصور الإبداع الإلهي للإنسان فابتدئ بالخلق الذي هو الإيجاد الأصلي ثم بالبرء الذي هو تكوين جسم الإنسان ثم بالتصور الذي هو إعطاء الصورة الحسنة، كما أشار إليه قوله تعالى: (الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة)[1]، (هوالذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء)[2].

ووجه ذكرها عقب الصفات المتقدمة، أي: هذه الصفات الثلاث أريد منها الإشارة إلى تصرفه في البشر بالإيجاد على كيفية البديعة ليثير داعية شكرهم على ذلك. ولذلك عقبت بجملة (يسبح له ما في السماوات والأرض).[3]

= وفي سياق إقبال الكائنات كلها على الله وتسبيحه وتنزيهه؛ لتلقى في روع المؤمنين ضرورة الإقبال على الله والاجتماع عليه، والنهي عن التفرق عن منهجه وسبيله، وإلا لكانت الجمادات خيرا منهم ؛ جاء قوله تعالى :(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١)) / الجمعة.

فقد اشتملت الآية الكريمة على مجموعة متتابعة من الصفات المفردة بعد ذكر اسم الجلالة المفرد (الله)، هي (المَلِك – القدوس – العزيز– الحكيم " .

---

١ الانفطار/ ٧ ، ٨.

٢ آل عمران / ٦ .

٣ ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨ / ١١٧ : ١٢٦؛ و (سياقات قرآنية في أواخر سورة الحشر)– وسن محمود لطيف– ص ٥ : ١٠ – بحث منشور في مجلة الجامعة العراقية – العدد الثالث والثلاثون – الجزء الثالث – د . ت .

وقد جاء مطلع السورة الكريمة مبينا إقبال الكائنات كلها على الله وتسبيحه وتنزيهه؛ لتلقى في روع المؤمنين ضرورة الإقبال على الله والاجتماع عليه، والنهي عن التفرق عن منهجه وسبيله، وإلا لكانت الجمادات خيرا منهم. وبعد براعة الاستهلال هذه في السورة من إظهار معنى اجتماع الكائنات كلها على الله تسبيحا وعبادة يأتي ذكرصفات الله تعليلا لهذا الإقبال؛ فيذكر (الملك) الذي يملك كل شيء بمناسبة التجارة التي يسارعون إليها ابتغاء الكسب .

ويذكر (القدوس) الذي يتقدس ويتنزه ويتوجه إليه بالتقديس والتنزيه كل ما في السموات والأرض؛ وذلك بمناسبة اللهو الذي ينصرفون إليه عن ذكره.

ويذكر (العزيز) بمناسبة المباهلة التي يدعى إليها اليهود، والموت الذي لابد أن يلاقي الناس جميعا والرجعة إليه والحساب. ويذكر (الحكيم) بمناسبة اختياره الأمين؛ ليبعث فيهم ومنهم رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وكلها مناسبات لطيفة المدخل والاتصال.[1]

يقول الفخر الرازي: " ولما كان الملك كله له فهو الملك على الإطلاق، ولما كان الكل بخلقه فهو المالك، والمالك والملك أشرف من الملوك، فيكون متصفا بصفات يحصل منها الشرف، فلا مجال لما ينافه من الصفات فيكون قدوسا، فلفظ (الملك) إشارة إلى إثبات ما يكون من الصفات العالية. ولفظ (القدوس) هو إشارة إلى نفي ما لا يكون منها، وعن الغزالي (القدوس) المنزه

---

١ ينظر: وحدة النسق في سورة الجمعة – د/ محمد أحمد الجمل ، ود / محمد رضا الحوري :ص ٢٢ ، ٢٣– بحث منشور في مجلة جامعة اليرموك – الأردن (د. ت).

عما يخطر ببال أوليائه ".[1]

= يقول البقاعي : " ولما ثبت بالسور الثلاث الماضية (الحديد – الحشر – الصف) أن الموجودات أوقعت له التسبيح، وأخبرت هذه باستمرار ذلك على سبيل التجديد، دل ذلك مع التنزيه عن النقائص على إثبات الكمال الذي لا يكون إلا لملك عظيم الشأن مطاع الأمر، وكان الاقتصار على الصامت بالتعبير بما هو ظاهر فيه ربما أوهم شيئاً، قال مصرحاً بما أفهمه السياق: { الملك } أي الذي ثبتت له جميع الكمالات فهو ينصر من يشاء من جنده ولو كان ذليلاً فيصبح ظاهراً { القدوس } الذي انتفت عنه جميع النقائص، فلا يكون شيء إلا بإذنه وتنزه عن إحاطة أحد من الخلق بعلمه أو إدراك كنه ذاته فليس في أيدي الخلق إلا التردد في شهود أفعاله، والتدبر لمفاهيم نعوته وجلاله، وأحقهم بالقرب والعداد في حزبه المتخلق بأوصافه على قدر اجتهاده، فينبغي للمؤمن التنزه عن أن يقول ما لا يفعل أو يبني شيئاً من أموره على غير إحكام، وقد مضى شرح الاسمين الشريفين قريباً وذكر خلاصة شرحهما بما هو خاصة الملك وآية الطهارة للطاهر فقال: { العزيز } أي الذي يغلب كل شيء، لا يغلبه شيء، فلو أراد لجعل العقلاء كلهم أيضاً مع تسبيحهم بالجري تحت مراده طوعاً وكرهاً مسبحين بالموافقة لأمره طوعاً { الحكيم * } الذي يوقع كل ما أراده في أحكم مواقعه وأتمها وأتقنها ".[2]

---

١ التفسير الكبير: ٣٠ / ٢؛ وينظر : البحر المحيط: ٨ / ٢٦٢ ، ٢٦٣

٢ نظم الدرر : ١٠ / ٤٦.

ويقول الشيخ الطاهر : " افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح أهل السماوات والأرض لله تعالى براعة استهلال؛ لأن الغرض الأول من السورة التحريض على شهود الجمعة والنهي عن الأشغال التي تشغل عن شهودها وزجر فريق من المسلمين انصرفوا عن صلاة الجمعة؛ حرصا على الابتياع من عير وردت المدينة في وقت حضورهم لصلاة الجمعة؛ وللتنبيه على أن أهل السماوات والأرض يجددون تسبيح الله ولا يفترون عنه أوثر المضارع في قوله (يسبح).[1] ومناسبة الجمع بين هذه الصفات هنا أن العظيم لا ينصرف عن مجلسه من كان عنده إلا عند انقضاض مجلسه أو إيذانه بانصرافهم.

و(القدوس): المنزه عن النقص وهو يرغب في حضرته. و(العزيز): يعتز الملتفون حوله. فمفارقتهم حضرته تفريط في العزة. وكذلك (الحكيم) إذا فارق أحد حضرته فاته في كل آن شيء من الحكمة كما فات الذين انفضوا إلى العير ما خطب به النبي صلى الله عليه وسلم إذ تركوه قائما في الخطبة..................

وقد يتساءل السامع عن وجه تخصيص تلك الصفات بالذكر من بين صفات الله تعالى فكأن الحال مقتضيا أن يبين شيء عظيم من تعلق تلك الصفات بأحوال خلقه – تعالى – إذ بعث فيهم رسولا يطهر نفوسهم ويزكيهم ويعلمهم. فصفة (الملك) تعلقت بأن يدبر أمر عباده ويصلح شؤونهم، وصفة (القدوس) تعلقت بأن يزكي نفوسهم، وصفة (العزيز) اقتضت أن يلحق الأميين من عباده بمراتب أهل العلم ويخرجهم من ذلة الضلال فينالوا عزة العلم

---

١ التحرير والتنوير: ٢٨ / ٢٠٦

وشرفه، وصفة (الحكيم) اقتضت أن يعلمهم الحكمة والشريعة. وابتداء الجملة بضمير اسم الجلالة لتكون جملة اسمية فتفيد تقوية هذا الحكم وتأكيده، أي أن النبي صلى الله عليه وسلم مبعوث من الله لا محالة.[1]

= وفي سياق الترغيب في البذل والإنفاق ووعد الله – تعالى – عباده على ذلك الأجر العظيم وبيان فضل العمل بذلك؛ جاء قوله تعالى:
(إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)) / التغابن .

فالمعنى: إن تنفقوا في طاعة الله متقربين إليه يجزكم بالضعف؛ لما أنه (شكور) يحب المتقربين إلى حضرته (حليم) لا يعجل بالعقوبة (غفور) يغفر لكم.[2]

فإن مضاعفة الجزاء على الإنفاق مع المغفرة خير عظيم، وبهذا الموقع يعلم السامع أن القرض أطلق على الإنفاق المأمور به إطلاقا بالاستعارة، والمقصود الاعتناء بفضل الإنفاق المأمور به اهتماما مكررا فيعد أن جعل خيرا جعل سبب الفلاح وعرف بأنه قرض من العبد لربه وكفى بهذا ترغيبا وتلطفا في الطلب إذ جعل المنفق كأنه يعطي الله تعالى مالا وذلك من معنى الإحسان في معاملة العبد ربه.[3]

---

١ ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨ / ٢٠٧ .

٢ ينظر: تفسير الفخر: ٣٠ / ٢٨ .

٣ ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨ / ٢٩١.

وقد اشتملت الآية الكريمة على مجموعة متتابعة من الصفات المفردة بعد ذكر اسم الجلالة المفرد (الله)، هي (شَكُورٌ – حَلِيمٌ – عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ – الْعَزِيزُ – الْحَكِيمُ).

فإن الحق– سبحانه وتعالى– لما أمر ورهب من ضد الإنفاق والبذل في سبيل الله – تعالى – على وجه أعم، رغب فيه؛ تأكيداً لأمره؛ لما فيه من الصعوبة لا سيما في زمان النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإن المال فيه كان في غاية العزة، ولا سيما إن كان في لوازم النساء اللاتي افتتح الأمر بأن منهن أعداء ولا سيما إن كان في حال ظهور العداوة؛ فقال بياناً للإفلاح متلطفاً في الاستدعاء بالتعبير بالقرض مشيراً إلى أنه على خلاف الطبع بأدة الشك: { إن تقرضوا الله } أي: المَلِك الأعلى ذا الغنى المطلق المستجمع لجميع صفات الكمال بصرف المال وجميع قواكم التي جعلها فتنة لكم في طاعاته، ورغب في الإحسان فيه بالإخلاص وغيره فقال: { قرضاً حسناً } أي: على صفة الإخلاص والمبادرة ووضعه في أحسن مواضعه على أيسر الوجوه وأجملها وأهنأها وأعدلها، وأعظم الترغيب فيه بأن رتب عليه الربح في الدنيا والغفران في الآخرة فقال: { يضاعفه لكم } أي: لأجلكم خاصة أقل ما يكون للواحد عشراً إلى ما لا يتناهى على حسب النيات.

ولما كان التقدير: فاللّه غفور رحيم، عطف عليه قوله: { والله } أي الذي لا يقاس عظمته بشيء { شكور } أي بليغ الشكر لمن يعطي لأجله ولو كان قليلاً فيثيبه ثواباً جزيلاً خارجاً عن الحصر وهو ناظر إلى المضاعفة { حليم } لا يعاجل بالعقوبة على ذنب من الذنوب وإن عظم بل يمهل كثيراً طويلاً ليتذكر العبد الإحسان مع العصيان فيتوب، ولا يهمل ولا يغتر بحلمه، فإن غضب الحليم

لا يطاق، وهو راجع إلى الغفران.[1]

و(الشكور): (فعول) بمعنى (فاعل) مبالغة، أي: كثير الشكر وأطلق الشكر فيه على الجزاء بالخيرعلى فعل الصالحات؛ تشبيها لفعل المتفضل بالجزاء بشكر المنعم عليه على نعمة ولا نعمة على الله فيما يفعله عباده من الصالحات. فإنما نفعها لأنفسهم ولكن الله تفضل بذلك حثا على صلاحهم فرتب لهم الثواب بالنعيم على تزكية أنفسهم، وتلطف لهم فسمي ذلك الثواب شكرا وجعل نفسه شاكرا. وقد أومأ إلى هذا المقصد إتباع صفة (شكور) بصفة (حليم)؛ تنبيها على أن ذلك من حلمه بعبادة دون حق لهم عليه سبحانه. وأما الوصف ب(عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم) فتتميم للتذكير بعظمة الله – تعالى – مع مناسبتها للترغيب والترهيب الذين اشتملت عليهما الآيات السابقة كلها؛ لأن العالم بالأفعال ظاهرها وخفيها لا يفيت شيئا من الجزاء عليها بما رتب لها؛ ولأن العزيز لا يعجزه شيء.[2]

ومعنى هذا أن الحليم لما كان قد يتهم في حلمه بأن ينسب إلى الجهل بالذنب أو بمقداره قال: { عالم الغيب } وهو ما غاب عن الخلق كلهم فيشمل ما هو داخل القلب مما تؤثره الجبلة ولا علم لصاحب القلب به فضلاً عن غيره. ولما كان قد يظن أنه لا يلزم من علم ما غاب علم ما شهد، أو يظن أن العلم إنما يتعلق بالكليات، قال موضحاً أن علمه بالعالمين بكل من الكليات والجزئيات قبل الكون وبعده على حد سواء: { والشهادة } وهو كل ما ظهر فكان بحيث

١ نظم الدرر : ٢٠ / ١٣٥ ، ١٣٦.

٢ التحرير والتنوير : ٢٨ / ٢٩٠ ، ٢٩١.

يعلمه الخلق.

وهذا الوصف داع إلى الإحسان من حيث إنه يوجب للمؤمن ترك ظاهر الاسم وباطنه وكل قصور وفتور وغفلة وتهاون فيعبد الله كأنه يراه. ولما شمل ذلك كل ما غاب عن الخلق وما لم يغب عنهم فلم يبق إلا أن يتوهم أن تأخير العقوبة للعجز؛ قال: { العزيز } أي: الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء. و(الحكيم): الموصوف بالحكمة لا يدع معاملة الناس بما يقتضيه الحكمة من وضع الأشياء مواضعها ونوط الأمور بما يناسب حقائقها.[1]

و(الحكيم) فعيل بمعنى: المُحْكِم، أي: المُتقِن في صنعه ومعاملته وهما معا من صفاته تعالى فهو وصف جامع للمعنيين.[2]

ولما كان ذلك قد يكون لأمر آخر لا يمدح عليه قال: { الحكيم } أي أنه ما أخره إلا لحكمة بالغة يعجز عن إدراكها الخلائق، وقد أقام الخلائق في طاعته بالجري تحت إرادته، وتارة يوافق ذلك أمره فيسمى طاعة.[3] وبهذا التنسيق العجيب بين الصفات الواردة في خاتمة سورة التغابن نجد تناغما عجيبا بينها وبين الوارد في بداية سورة الجمعة قبلها ؛ ذلك أنه قد أحاط أول الجمعة بهذه السورة أولها وآخرها، فجاءت هذه شارحة له وكاشفة عنه على وجه أفخم؛ لأن مقصود هذه نتيجة مقصد تلك، وقد رجع - بالتنزه عن شوائب النقص والاختصاص بجميع صفات الكمال وشمول القدرة للخق وإحاطة العلم

---

١ المرجع السابق: ٢٠ / ١٣٧ ، ١٣٨ .

٢ المرجع السابق : ٢٨ / ٢٩١.

٣ المرجع السابق: ٢٠ / ١٣٨ .

بأحوال الكافر والمؤمن - على افتتاحها حسن ختامها، وعلم علماً ظاهراً جلالة انتظامها، وبداعة اتساق جميع آيها وبراعة التئامها .[1]

= وفي سياق بيان قدرته - تعالى - والتدليل على كمال قدرته واختصاصه بذلك؛ تأكيدا على بناء الثقة عند المؤمنين؛ وردا على إنكار الكافرين لذلك؛ جاء قوله تعالى: (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦)) / البروج فبعد أن ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات. ووصف ما أعدّ لهم من الثواب كفاء أعمالهم - أردف ذلك كله بما يدل على تمام قدرته على ذلك، ليكون ذلك بمثابة توكيد لما سبق من الوعيد والوعد فالملك لا يعظم سلطانه وهيبته في النفوس إلا بأمرين :

- الجود الشامل والإنعام الكامل، وبذا يرجى خيره

الجيوش الجرارة والأساطيل العظيمة التي توقع بأعدائه وتنكل بهم، وبذلك يهاب جانبه، وإليهما معا أشار بقوله فيما سلف: « الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » وهنا زاد الأمر إيضاحا بقوله « إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ » الآية؛ فإن الله – تعالى – في هذه الآيات يبين كمال قدرته؛ فيقول تعالى: { إن بطش ربك } أي: أَخْذَ المُحسِنُ إليك المُدبِر لأَمْرِك أعداءَ الدين بالعنف والسطوة وغاية الشدة قال: {لشديد } أي: شدة يزيد عنفها على مافي البطش من العنف، فهو عنف مضاعف.

ولما كان هذا البطش لا يتأتى إلا لكامل القدرة؛ دل على كمال قدرته

---

١ ينظر: التحرير والتنوير : ٢٠ / ١٣٧، ١٣٨.

واختصاصه بذلك بقوله مؤكدا لما لهم من الإنكار: (إنه هو يبدئ). ولما كان الاختصاص يدل قطعا على كمال القدرة؛ أنتج ذكرهذه الاختصاصات قوله: { فعال } أي: على سبيل التكرار والمبالغة { لما يريد } لا يؤوده شئ من الأفعال سواء كانت منسوبة إليه من غير واسطة أو نسبت في الظاهرإلى غيره.[1]

ولما كان محور السورة يدور حول الفتن، وتسلية المؤمنين بأن ما أصابهم قد أصاب غيرهم ما هو أكثر منهم؛ جمع الله – تعالى – في هذه الآيات ما بين تخويف العصاة، وبناء الثقة عند المؤمنين، والله – سبحانه وتعالى – صاحب العرش العظيم القوي الذي لا يعلم قوته وعظمته الا هو سبحانه، ولا ينازعه فيه أحد؛ لذلك ذكر مثال فرعون المتجبر وثمود؛ تنبيها للناس على أن يلاحظوا فعل القوة الإلهية بهؤلاء الناس الذين طغوا وتجبروا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد حتى كان عاقبة أمرهم أن صب الله عليهم سوط عذاب، ونبه أيضا على مصدر القرآن وصدقه البالغ النهاية في الشرف والرفعة والعظمة بأنه كائن في لوح محفوظ من التغيير والتبديل لا يصل إليه أحد.[2]

ثم ذكر سبحانه خمس صفات من صفات الرحمة والجلال فقال :

- (وَهُوَ الْغَفُورُ): لمن يرجع إليه بالتوبة، فيتجاوز عن سيئاته .
- (الْوَدُودُ): لمن خلصت نفسه بالمحبة له .
- (ذُو الْعَرْشِ) أي: ذو الملك والعظمة، والسلطان والقدرة النافذة، والأمر الذي

---

١ المرجع السابق: ص ٢٦.

٢ ينظر/ سورة البروج دراسة تحليلية موضوعية – منى طريلي – ص ٢٥ – ماجستير كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية – بجامعة الشهيد حمه الخضر/ الوادي – ٢٠١٤م – ٢٠١٥م

لا يردّ .

- (الْمَجِيدُ) أي: العظيم الكرم والفضل .

- (فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ)أي: لا يريد شيئا إلا فعله وفق إرادته، فإذا أراد هلاك الجاحدين المعاندين ونصرأهل الحق الصادقين لم يعجزه ذلك، وأين هم ممن سبقهم ممن كانوا أضل منهم وأشد قوة؟ وقد جاءت هذه الصفات وفق تنسيق بليغ وترتيب عجيب؛ فجاءت الجملة المشتملة عليها - (وهو الغفور الودود... الآيات) - جملة معطوفة على جملة (إن بطش ربك لشديد)، ومضمونها قسيم لمضمون (إن بطش ربك لشديد)؛ لأنه لما أفيد تعليل مضمون جملة (إن الذين فتنوا المؤمنين) إلى آخره، ناسب أن يقابل بتعليل مضمون جملة (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات) إلى آخره، فعلل بقوله: (وهو الغفور الودود)، فهو يغفر للذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات ما فرط منهم وهو يحب التوابين ويودهم.

والودود: فعول بمعنى فاعل مشتق من الود وهو المحبة فمعنى الودود: المحب وهو من أسمائه تعالى، أي إنه يحب مخلوقاته ما لم يحيدوا عن وصايته.

والمحبة التي يوصف الله بها مستعملة في لازم المحبة في اللغة تقريبا للمعنى المتعالي عن الكيف وهو من معنى الرحمة، وقد تقدم عند قوله تعالى (إن ربي رحيم ودود) في آخر سورة هود. ولما ذكر الله من صفاته ما تعلقه بمخلوقاته بحسب ما يستأهلونه من جزاء؛ أعقب ذلك بصفاته الذاتية على وجه الاستطراد والتكملة بقوله: (ذو العرش المجيد)؛ تنبيها للعباد إلى وجوب عبادته لاستحقاقه العبادة لجلاله كما يعبدونه

لاتقاء عقابه ورجاء نواله.

والعرش: اسم لعالم يحيط بجميع السماوات، سمي عرشا؛ لأنه دال على عظمة الله - تعالى - كما يدل العرش على أن صاحبه من الملوك. والمجيد: العظيم القوي في نوعه، ومن أمثالهم في كل شجرنار، واستمجد المرخ والعفار، وهما شجران يكثر قدح النار من زندهما. وقرأه الجمهور بالرفع على أنه خبر رابع عن ضمير الجلالة. وقرأه حمزة والكسائي وخلف بالجر نعتا للعرش فوصف العرش بالمجد كناية عن مجد صاحب العرش.

ثم ذيل ذلك بصفة جامعة لعظمته الذاتية وعظمة نعمه بقوله: (فعال لما يريد) أي إذا تعلقت إرادته بفعل، فعله على أكمل ما تعلقت به إرادته لا ينقصه شيء ولا يبطيء به ما أراد تعجيله. فصيغة المبالغة في قوله (فعال) للدلالة على الكثرة في الكمية والكيفية. [1]

يقول البقاعي :" ولما ذكر سبحانه بطشه، وكان القادر على العنف قد لا يقدر على اللطف، وإن قدر فربما لم يقدر على الإبلاغ في ذلك، وكان لا يقدر على محو الذنوب أعيانها وآثارها على كل أحد بحيث لا يحصل لصاحبها عقاب ولا عتاب من أحد أصلاً إلا من كان قادراً على كل شيء، قال مبيناً لجميع ذلك دليلاً على أنه الفاعل المختار، ومؤكداً لخروجه عن العوائد:{وهو} أي وحده { الغفور } أي المحاء لأعيان الذنوب وآثارها إذا أراد بحيث لا يحصل لمن محا ذنبه كدر من جهة ذلك الذنب أصلاً { الودود } أي الذي يفعل بمن أراد فعل

---

١ ينظر: التحرير والتنوير: ٣٠ / ٢٤٩ ، ٢٥٠.

المحب الكثير المحبة فيجيبه إلى ما شاء ويلقي على صاحب الذنب الذي محاه عنه وداً أي محبة كبيرة واسعة ويجعل له في قلوب الخلق رحمة، ومادة " ود " تدور على الاتساع كما بينته في سورة الروم، وزاد الأمر تأكيداً بذكر ما لا ينازع أصلاً في اختصاصه به تشريفاً له وتنبيهاً على أنه أعظم المخلوقات: { ذو العرش } أي: العز الأعظم أو السرير الدال على اختصاصه الملك بالملك وانفراده بالتدبير والسيادة والسياسة، الذي به قوام الأمور { المجيد } أي الشريف الكريم العظيم في ذاته وصفاته الحسن الجميل الرفيع العالي الكثير العطاء – هذا إذا رفع على أنه صفة لـ " ذو " وكذا إن جر على أنه صفة للعرش في قراءة حمزة والكسائي.

ولما كان الاختصاص يدل قطعاً على كمال القدرة، أنتج ذكر هذه الاختصاصات قوله: { فعّال } أي على سبيل التكرار والمبالغة { لما يريد } لا يؤده شيء من الأفعال سواء كانت منسوبة إليه من غير واسطة أو نسبت في الظاهر إلى غيره.[1]

---

١ نظم الدرر: ٢١ / ٣٦٢ ، ٣٦٣.

المبحث الثاني

التناسب البلاغي في تناسُق الصفات المفردة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد في سياق الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم

= **تمهيد** :

لقد ذكر الله – تعالى – فى كتابه الكريم صفات نبيه ﷺ فى آيات كثيرة، وقد جاءت الصفات المفردة الزائدة على الثلاث في موضعين من الذكر الحكيم : أحدهما جاء في سورة التوبة في سياق الامتنان على المؤمنين بإرساله إليهم، في قوله تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم)[1]، والموضع الآخر جاء في سورة الأحزاب في افتتاح بيان تحديد تقلبات شؤون رسالته فى معاملة الأمة في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾[2]، وبيان أسرار التناسب البلاغي في ترتيب الصفات الواردة فيهما يأتي على النحو الآتي:

= ففي سياق الامتنان على المؤمنين بإرساله إليهم؛ جاء قوله تعالى:
(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) التوبة / ١٢٨.

فقد اشتملت الآية الكريمة على صفات مفردة هي (عزيز – حريص – رؤوف – رحيم) :

---

١ التوبة / ١٢٨ .

٢ الأحزاب / ٤٥ ،٤٦.

و(الرؤوف): ذو رأفة.[١]، وهي أشد الرحمة وأبلغها.[٢]، قال الخطابي: هو الرحيم العاطف برأفته على عباده . [٣]

و(الرحيم): اسم من اسمائه – تعالى – مشتق من الرحمة على وجه المبالغة ، وهذا الاسم قد يطلق على غير الله فيقال: رجل رحيم – بخلاف الرحمن فهو مختص بالله – عز وجل – والرحيم اسمه – تعالى – والرحمة صفته تليق بعظمته وجلالته.[٤]

والرؤوف: الشديد الرافة . والرحيم : الشديد الرحمة لانهما صيغتا مبالغة، وهما يتنازعان المجرور المتعلق بهما وهو (بالمؤمنين). والرأفة رقة تنشأ عند حدوث ضر بالمرؤوف به. يقال: ررؤوف رحيم .

والرحمة: تقتضي الاحسان للمرحوم، بينهما عموم وخصوص مطلق، ولذلك جمع بينهما هنا ولوازمهما مختلفة . وتقديم المتعلق على عامليه

١ جامع البيان عن تأويل اي القران – محمد بن جرير الطبري : ١٨/٢ الطبعة الثالثة – ١٩٦٨ – مصطفى البابي الحلبي .

٢ ينظر/ الفروق اللغوية : ص١٦١ – دار الكتب العلمية بيروت – ١٩٨١م.

٣ شأن الدعاء – الخطابي : ص ٩١ – تح / أحمد يوسف الدقاق – دار المأمون للتراث / بيروت دمشق – ط أولى ١٩٨٤ م .

٤ ينظر: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى – الغزالي – ص ٦٢،٦٣– بعناية بسام عبد الوهاب الجابي – الجفان للطباعة والنشر – القبرص – الطبعة الأولى / ١٩٨٧م ؛ و (أسماء الله الحسنى) – رجاء محمد المصري المكي – ص٨ – مكتبة التوعية الاسلامية / الطبعة الثانية (د.ت).

المتنازعين في قوله: { بالمؤمنين رؤوف رحيم }؛ للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم. وأما رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فهي رحمة مشوبة بشدة على غير المؤمنين، فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم.[1]

قيل: قدم الأبلغ منهما وهو الرأفة التي هي عبارة عن شدة الرحمة؛ رعاية للفواصل، وهو أمر مرعى في القران، وهو مبني على ما فسره به الرأفة وصحح أن الرافة: الشفقة، والرحمة: الإحسان.

وقد يقال : تقديم الرأفة باعتبار أن آثارها دفع المضار وتأخير الرحمة؛ باعتبار أن آثارها جلب المنافع، ودفع المضرة، والأول أهم من الثاني جلب المنفعة.

وكأن الرافة هنا مأخوذة من"رقع الثوب لإصلاح شقه"؛ فيكون في وصفه صلى الله عليه وسلم بما ذكر وصف له بدفع الضررعنهم وجلب المصلحة لهم ولم يجمع هذان الاسمان لغيره عليه الصلاة والسلام.[2] ورفع (عزيز) على انه صفة سببية ل(رسول)– وبه يتعلق (عليه) وفاعله المصدر، وهو الذي يقتضيه ظاهر النظم الجليل. وقيل: إن (عزيز عليه) خبر مقدم، و(ما عنتم) مبتدا مؤخر ، والجملة في موضع الصفة. وقيل: إن (عزيز) نعت حقيقي ل(

---

١ ينظر: (أسماء الله الحسنى) – رجاء محمد المصري المكي :٧٣/١١ (مرجع سابق) ؛ ودلالات التقديم والتأخير في القرآن د/ المسيري – ص ٤٠٨.

٢ روح المعاني – الألوسي : ١١ / ٥٢؛ وينظر: الفخر الرازي : ١٦/ ٢٤١ ، ٢٤٢؛ والدر المصون للسمين الحلبي : ١٤١/٦، ١٤٢.

رسول) وعنده تم الكلام، و(عليه ما عنتم) ابتداء الكلام ؛ أي: يهمه ويشك عليه عنتكم.

و(حريص عليكم) أي: على إيمانكم وصلاح شأنكم ؛ لأن الحرص لا يتعلق بذواتكم . (بالمؤمنين) منكم ومن غيركم .[1]

ويقول أبو حيان في البحر المحيط وصف الله نبيه – عليه السلام – بستة أوصاف :

– الرسالة وهي صفة كمال الانسان؛ لما احتوت عليه من كمال ذات الرسول وطهارة نفسه الذكية .

– وكونه من الخيار بحيث أهل أن يكون واسطة بين الله وبين خلقه، ولما كانت هذه الصفة أشرف الأشياء، بدئ بذكرها وكونه من أنفسهم، وهي صفة مؤثرة في التبليغ والفهم عنه التآنس به، فإن كان خطابا للعرب؛ ففي هذه الصفة التنبيه على شرفهم والتحريض على اتباعه، وإن كان الخطاب لبني آدم؛ ففيه التنويه بهم واللطف في إيصال الخير إليهم، وأنه معروف بينهم بالصدق والأمانة والعفاف والصيانة .

– وكونه يعز عليه ما يشق عليه فهذا الوصف من نتائج الرسالة.
– وكونه حريصا على هدايتهم وهو أيضا من نتائج الرسالة؛ لأنه بعث ليعبد الله ويفرد بالألوهية

---

١ روح المعاني – الألوسي : ١١ / ٥٢ .

– وكونه رؤوفا .

– رحيما بالمؤمنين، وهما وصفان من نتائج التباعية له والدخول في دين الله.[1]

يقول الشيخ الطاهر:" كانت هذه السورة – يعني التوبة – سورة شدة وغلظة على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب، وأمرا للمؤمنين بالجهاد، وإنحاء على المقصرين في شأنه. وتخلل ذلك تنويه بالمتصفين بضد ذلك من المؤمنين الذين هاجروا والذين نصروا واتبعوا الرسول في ساعة العسرة.

فجاءت خاتمة هذه السورة آيتين بتذكيرهم بالمنة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم والتنويه بصفاته الجامعة للكمال. ومن أخصها حرصه على هداهم، ورغبته في إيمانهم ودخولهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفا رحيما بهم ليعلموا أن ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول والفعل ما هو إلا استصلاح لحالهم. وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)، بحيث جاء في هاتين الآيتين بما شأنه أن يزيل الحرج من قلوب الفرق التي نزلت فيهم آيات الشدة وعوملوا بالغلظة تعقيبا للشدة بالرفق وللغلظة بالرحمة، وكذلك عادة القرآن. فقد انفتح بهاتين الآيتين باب حظيرة الإيمان والتوبة ليدخلها من وفقه الله إليها. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا. وفي وقوعها آخر السورة ما يكسبها معنى التذييل والخلاصة.[2]

---

١ ينظر: البحر المحيط : ٥/ ١٢١؛ وتفسير الفخر: ٢٤١/١٦، ٢٤٢.

٢ التحرير والتنوير : ١١ / ٧٢ .

فلما أمر صلى الله عليه وسلم أن يبلغ هذه الأشياء الشاقة جداً من أمر هذه السورة، وكان من المعلوم أنه لا يحمل ذلك إلا من وفقه الله تعالى، وأما المنافقون فيكرهون ذلك وكان انصرافهم دالاً على الكراهة، عرفهم أن الأمر كان يقتضي توفر دواعيهم على محبة هذا الداعي لهم المقتضي لملازمته والبعد عما يفعلونه به من الانصراف عنه، وأن أحواله الداعية لهم إلى محبته أعظم من أحوال آبائهم التي أوجبت لهم منهم من المحبة وعليهم من الحقوق ما هم مفتخرون بالتلبس به والمغالاة فيه، وأن كل ما يحصل بهذا القرآن من العز والشرف في الدنيا فهو لكل من آمن به فقال: { لقد جاءكم رسول }.[1]

ولما كان الرسول يجب إكرامه والوقوف في خدمته لأجل مرسله ولو تجرد عن غير ذلك الوصف، شرع يذكر لهم من أوصافه ما يقتضي لهم مزيد إكرامه فقال: { من أنفسكم } أي ترجعون معه إلى نفس واحدة بأنكم لأب قريب؛ وذلك أقرب إلى الألفة وأسرع إلى فهم الحجة وأبعد من المحل واللجاجة { عزيز } أي: شديد جداً { عليه ما عنتم } والعزة: امتناع الشيء بما يتعذر معه ما يحاول منه بالقدرة أو بالقلة أو بالصعوبة، والعنت: لحاق الأذى الذي يضيق الصدر به ولا يهتدي للمخرج منه { حريص } أي: بليغ الحرص { عليكم } أي: على نفعكم، والحرص: شدة طلب الشيء على الاجتهاد فيه.

وقدم الجار لإفادة الاختصاص فقال: { بالمؤمنين } أي العريقين في هذا الوصف كافة خاصة.

ولما ذكر الوصف المقتضي للرسوخ، قدم ما يقتضي العطف على من

---

١ نظم الدرر : ٩ / ٥٥.

يتسبب له بما يقتضي الوصلة فقال: { رءوف } أي شديد الرحمة لمن له منه عاطفة وصلة لما تقدم من معنى الرأفة قريباً.

ولما كان المؤمن يطلق مجازاً على من يمكن منه الإيمان فوصلته الآن ليست بالفعل بل الإمكان، قال تعميماً لرحمته صلى الله عليه وسلم كما هو اللائق بشريف منصبه وعظيم خلقه: { رحيم } ولأجل مثل هذه الأغراض النفسية رتب سبحانه هذين الوصفين هكذا، ولكن المعاني المراده تارة يظهرها الله تعالى لعبده منحة له وإكراماً، وتارة يخفيها إظهاراً لعجزه ونقصانه ثم يظهرها له في وقت آخر إن صدق في التضرع وإظهار الافتقار والتذلل وأدام الطلب، أو لغيره ممن هو أقل منه علماً وأضعف نظراً وفهماً. [1]

= وفي سياق افتتاح بيان تحديد تقلبات شؤون رسالته فى معاملة الأمة؛ جاء قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦)) / الأحزاب

يعد النداء الوارد في الآية السابقة هو النداء الثالث الذى اشتملت عليه سورة الأحزاب؛ فإن الله تعالى لما أبلغه بالنداء الأول ما هو متعلق بذاته، وبالنداء الثانى ما هو متعلق بأزواجه، وما تخلل ذلك من التكليف والتذكير، ناداه بأوصاف أودعها الله سبحانه فيه للتنويه بشأنه ورفعة مقداره وبين له أركان رسالته، فهذا الغرض هو وصف تعلقات رسالته بأحوال أمته وأحوال الأمة السابقة .

---

١ المرجع السابق : ٩ / ٥٦ ، ٥٧.

وذكر له هنا خمسة أوصاف هى: (شاهد، ومبشر، ونذير، وداع إلى الله، وسراج منير)، فهذه الأوصاف ينطوى إليها وتنطوى على مجامع الرسالة المحمدية؛ فلذلك اقتصر عليها من بين أوصافه الكثيرة . (١)

فالخطاب هنا موجه إلى رائد الجماعة المؤمنة ﷺ؛ تذكيراً له برسالته فى الأرض، وتحديداً لمهماته، وأنه شاهد بصحة ما هو صحيح من الشرائع، وبقاء ما هو صالح للبقاء منها، ويشهد ببطلان ما ألصق بها، وبقاء ما لا ينبغى بقاؤه من أحكامها، ومبشر يبشر أولياء الحق، ونذير ينذر بالدمار والهلاك حزب الباطل، وأنه داع يدعو إلى الله، وأنه سراج منير يهدى الطريق إليه سبحانه . (٢)

وقد ألمح الفخر إلى حسن التنسيق فى هذه الأوصاف بقوله : " وفيه ترتيب حسن من حيث إن النبى ﷺ أرسل شاهداً بقوله: " لا إله إلا الله " ويرغب فى ذلك بالبشارة، فإن لم يكف ذلك يرهب بالإنذار، ثم لا يكتفى بقولهم" لا إله إلا الله " بل يدعوهم إلى سبيل الله كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ (٣)، وقوله: ﴿ سِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ أى: مبرهناً على ما يقول مظهراً له بأوضح البراهين " ا هـ (٤) ولا شك أن ذكر هذه الأوصاف يتناغم مع التعظيم المستفاد من النداء بالوصف فى قوله " يا أيها النبى " والله تعالى أعلم .

---

١ ينظر : التحرير والتنوير : ٥٢/٢٢ .

٢ من أسرار التعبير : ص ٣٦٣ .

٣ النحل / ١٢٥ .

٤ التفسير الكبير : ٢١٧/٢٥ ، ٢١٨ .

ومعنى الشاهد فى الآية: المخبر ن حجة المدعى المحق، ودفع دعوى المبطل .

فالرسول ﷺ شاهد بصحة ما هو صحيح من الشرائع وبقاء ما هو صالح للبقاء منها، ويشهد ببطلان ما ألصق بها، وبنسخ ما لا ينبغى بقاؤه من أحكامها بما أخبر عنهم فى القرآن والسنة . قال تعالى: ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾؛ فسيدنا محمد ﷺ شاهد أيضاً على أمته بمراقبة جريهم على الشريعة فى حياته، وشاهد عليهم فى عرصات القيامة، قال تعالى: ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾، فهو ﷺ شاهد على المستجيبين لدعوته، وعلى المعرضين عنها، وعلى من استجاب للدعوة ثم بدل .

وعلى هذا كان وصف الشاهد هنا أشمل هذه الأوصاف المذكورة فى الآية للرسول ﷺ بوصف كونه رسولاً لهذه الأمة، ووصف كونه خاتماً للشرائع ومتمماً لمراد الله تعالى من بعثة الرسل . وفى وصفه ﷺ بقوله: (مبشراً) إلماح إلى ما تضمنه هذا الوصف من الدلالة على ما اشتملت عليه شريعة الإسلام من الدعاء إلى الخير من الأوامر؛ إذ المبشرهو: المخبر بالبشرى والبشارة. وهى الحادث المسر لمن يخبر به والوعد بالعطية .

وفى تقديم (البشارة) على (النذارة) إيماء إلى أن النبى ﷺ قد غلب عليه التبشير؛ لأنه رحمة للعالمين ؛ ولكثرة عدد المؤمنين فى أمته .

وجىء فى جانب النذارة بصيغة (فعيل) دون اسم فاعل؛ لإرادة الاسم، فإن النذير في كلامهم اسم للمخبر بحلول العدو بديار القوم . ومن الأمثال: " أنا النذير العريان " أي: الآتى بخبر حلول العدو بديار قوم .

فالوصف " بنذير " تمثيل بحال نذير القوم، كما قال: (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)؛ للإيماء إلى تحقيق ما أنذرهم به حتى كأنه قد حل بهم، وكأن المخبر عنه مخبرعن أمر قد وقع. وهذا لا يؤديه إلا اسم النذير؛ ولذلك كثر فى القرآن الوصف ب(النذير) وقل الوصف بـ (منذر). وفى الوصف بقوله: (وداعياً إلى الله بإذنه) إشارة إلى شمول هذا الوصف أصول الاعتقاد فى شريعة الإسلام مما يتعلق بصفات الله؛ لأن دعوة الله دعوة إلى معرفته وما يتعلق بصفات الدعاة إليه من الأنبياء والرسل والكتب المنزلة عليهم .

وفى التقييد بقوله (بإذنه) إفادة إلى أن الله أرسله ﷺ داعياً إليه، ويسر له الدعاء إليه، مع ثقل أمر هذا الدعاء وعظم خطره، وهو ما كان استشعره النبى ﷺ فى مبدأ الوحى من الخشية إلى أن أنزل عليه: (يا أيها المدثر * قم فأنذر) .

فهذا إذن خاص وهو الإذن بعد الإحجام المقتضى للتيسير، فأطلق اسم الإذن على التيسيرعلى وجه المجاز المرسل .

والتعبير بقوله : (وسراجاً منيراً) تشبيه بليغ بطريق الحالية وهو طريق جميل .

أى: أرسلناك كالسراج المنير فى الهداية الواضحة التى لا لبس فيها، والتى لا تترك للباطل شبهة إلا فضحتها، وأوقفت الناس على دخلائلها، كما يضىء السراج الوقاد ظلمة المكان .

وهذا الوصف يشمل ما جاء به النبى ﷺ من البيان وإيضاح الاستدلال

وانقشاع ما كان قبله فى الأديان من مسالك للتبديل والتحريف، فشمل ما فى الشريعة من أصول الاستنباط والتفقه فى الدين والعلم، فإن العلم يشبه بالنور؛ فناسبه السراج المنير . وهذا وصف شامل لجميع الأوصاف التى وصف بها آنفاً فهو كالفذلكة وكالتذييل .

ووصف السراج بـ (منيراً) مع أن الإنارة من لوازم السراج، هو كوصف الشىء بالوصف المشتق من لفظه فى قوله: " شعر شاعر " و " ليل أليل"؛ لإفادة قوة معنى الاسم فى الموصوف به الخاص، فإن هدى النبى ﷺ هو أوضح الهدى، وإرشاده أبلغ إرشاد. [1]

١ ينظر: نظم الدرر: ٦/١١٥؛ والبيضاوى وحاشية الشهاب عليه:" ٧/١٧٧؛ وتفسير القاسمى: ٨ / ٩ ؛ وحاشية زاده : ٦/٦٤٥؛ والمحرر الوجيز: ١٣/٨٢،٨٣؛ والتحريروالتنوير: ٢٢/٥٢ ــ ٥٥.

المبحث الثالث

التناسب البلاغي في تناسُق الصفات المفردة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد في سياق الحديث عن الملائكة

ملائكة الله – تعالى – أقسام متعددة، ولهم وظائف متنوعة؛ فمنهم الموكلُ بالوحي من الله – تعالى – إلى رسله – عليهم الصلاة والسلام –، وهو الرُوح الأمين جبريل عليه السلام، قال الله تعالى : (مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ)[1]، وقال الله تعالى : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ.عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)[2]، وقال تعالى:(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقّ)[3] .

= وفي سياق الإخبار بوقوع البعث، وأنه مما أخبر به القرآن الكريم الكفار وأنهم قد كذبوا به من أجل ذلك، جاء قوله تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١)) / التكوير

" والرسول الكريم يجوز أن يراد به جبريل عليه السلام، وُصِفَ جبريلُ برسول؛ لأنه مرسل من الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن.[4]

---

١ البقرة / ٩٧.

٢ الشعراء / ١٩٣ .

٣ النحل / ١٠٢ .

٤ التحرير والتنوير: ٣٠ / ١٥٤ .

ويلاحظ هنا أن الحديث عن مَصْدرَيْ الذكر الحكيم: جبريل – عليه السلام – ورسول الله الصادق الأمين– صلى الله عليه وسلم – وإثبات صدق ما نطق به من الوحي والذكر من خلال تفنيد مطاعن خصومه ومناوئيه. وفي ذلك دلالة على إعجاز القرآن الكريم وروعة بلاغته وعلو فصاحته ، فإن المخاطبين – وهم كفار قريش – لما لم يجدوا في القرآن الموحَى به ما يقدح في نظمه من عيب ونفص وتناقض وباطل؛ لجئوا إلى التشكيك في مصدريْه مع علمهم بصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وكماله ونزاهته فكان إثبات حقيقة الوحي على هذا النحو المؤكد غاية التأكيد؛ زيادة في توبيخ المخاطبين وتقريعهم.[1]

وأوثر في الآيات الكريمة التعبير بوصف الرسالة (رسول) دون صفة الملوكية أو النبوة مثلا؛ تأكيدا لمعنى التبليغ وحمل الوحي وإنزاله ، ف(الرسول) يبلغ رسالة وكلام مَن أرسله كما هو دون زيادة او نقصان؛ وإيماءا إلى أن القول الذي يبلغه هو كلام الله – تعالى – تكلم به حقيقة، سمعه جبريل – عليه السلام – من الله تعالى، ومحمد عليه الصلاة والسلام سمعه من جبريل – عليه السلام –، وأن كلا منهما بلغه عن الله فهو قوله مبلغا، وقول الله المتكلم به حقيقة، فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله – تعالى – متكلما بالقرآن، وهو كلامه حقا في هاتين الآيتين، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى، وأنه ليس للرسُولَيْن الكريمَيْن منه الا التبليغ .[2]

---

١ ينظر: من أسرار النظم في سورة التكوير دراسة بلاغية – د/ عيسى بن صلاح الرجبي : ص ٣٠٣، ٣٠٤– بحث منشور في مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية – العدد الرابع عشر – ذو الحجة ١٤٣٣هـ.

٢ ينظر:المرجع السابق: ص ٢٩٥.

ورغبة في مضاعفة تأكيد المعنى المقسم عليه مضمونه بأسلوب آخر " هو أن القرآن الكريم وحي الله إلى رسوله) انتقل إلى وصف مصدري القرآن الكريم، وهما جبريل عليه السلام ، ومحمد رسول الله ، فوصف جبريل – عليه السلام – الذي كلف بمهمة نزول القرآن من السماء وتبليغه بخمسة صفات شريفة؛ إعلاء لمكانته وشأنه عند ربه؛ وتشريفا وتعظيما لمنزلته؛ ودلالة على شرف القرآن الكريم بأنْ نزل به هذا الملك العظيم الذي هذه هي صفاته ونعوته، وهي :

١- (كريم) : أي: عزيز على الله جل جلاله.

٢- { ذي قوة عند ذي العرش }: أي ذو قوة في الحفظ والبعد عن النسيان والخطأ وذو قدرة على ما يكلف به، وقد جاء ذلك أيضا في قوله تعالى (علمه شديد القوى)، وهو ليس ذا قوة فحسب، وإنما ذو قوة عند صاحب الهيمنة والسلطان؛ ولهذا ذكر ذا العرش ولم يقل عند الله.

٣- { مكين } : فهو رفيع المكانة والمنزلة عند ربه يعطيه ما سأله.

٤- { مطاع }: في الملأ الاعلى عند ملائكة الله المقربين؛ بدلالة تعبيره بظرف المكان للبعيد { ثَم } بمعنى :هناك؛ إشارة إلى الظرف المذكور، وهو: { عند ذي العرش }، فالملائكة يرجعون إلى أمره ويصدرون عن رأيه؛ علما منهم بقوته وشدته وأمانته، وأن إيراده وإصداره منوط بإذن رب العزة جل وعلا.

وقرئ بضم الثاء { ثُم } على أنها حرف عطف للتراخي في الرتبة؛ تعظيما لأمانة جبريل؛ وبيانا أنها أفضل صفاته المعدودة، وأعظم مما قبلها من الصفات؛ فقال :

٥- { أمين } على وحي ربه ورسالاته، قد عصمه من الخيانة فيما يأمره به،

وجنبه الذلل فيما يقوم به من الأعمال؛ للإشعار بعظم صفة الأمانة فيه؛ وعلو مرتبتها عما قبلها من الصفات؛ وذلك مشعر بصيانة القرآن الكريم عن التحريف والتبديل .[1]

وفي وصف جبريل – عليه السلام – بكل هذه الصفات التي تؤكد صدقه ونزاهته، وأنه لا يتقول على الله – تعالى –، وحشد كل هذه المؤكدات اللفظية، تهيئة ومقدمة للدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضد مطاعن المشركين وافتراءاتهم في حقه. [2]

وهذه الصفات في مجموعها توحي بكرامة هذا القول وضخامته وسموه كذلك وارتفاعه.

كما توحي بعناية الله – سبحانه – بالإنسان، حتى ليختار هذا الرسول صاحب هذه الصفة ليحمل الرسالة إليه، ويبلغ الوحي إلى النبي المختار منه، وهي عناية تخجل هذا الكائن، الذي لا يساوي في ملك الله شيئاً، لولا أن الله – سبحانه – يتفضل عليه فيكرمه هذه الكرامة !
وقد جاء تنسيق الصفات المذكورة متآزرا مع ما أراد الله – تعالى – إثباته لأمين الوحي جبريل – عليه السلام – من أنه مؤتمن على الوحي والرسالة، وذو رفعة عالية، ومكانة سامية عند الله تعالى .
وقد استطرد في خلال الثناء على القرآن الثناء على المَلَك المُرْسَل به؛ تنويها بالقرآن فإجراء أوصاف الثناء على (رسول)؛ للتنويه به أيضا؛ وللكناية على

---

١ ينظر تفسير الفخر ٣١/٧٤ .

٢ ينظر: من أسرار النظم القرآني في سورة التكوير : ص ٢٩٦، ٢٩٧. (مرجع سابق)

أن ما نـزل بـه صـدق؛ لأن كمـال القائـل يـدل علـى صـدق القـول. [1]

١ التحرير والتنوير: ٣٠ / ١٥٥ .

المبحث الرابع

التناسب البلاغي في تناسُق الصفات المفردة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد في سياق الحديث عن المؤمنين والمؤمنات

ورد في الذكر الحكيم كثير من الآيات الكريمة التي تحدثت عن صفات المؤمنين والمؤمنات، وتحدثت عن أهمها وأشهرها ودعت المؤمنين إلى أن يتصفوا بها؛ حتى تتحقق لهم الحياة الإيمانية المباركة السعيدة؛ وحتى ينالوا جنة الله وثوابه ونعيمه.

وقد تنوع حديث القرآن الكريم عن تلك الصفات، وتوزعت في السور المكية والمدنية؛ وهو ما أعطى أهمية كبرى لتذكير المسلمين بها حتى لا تنسى ولا تُهمل؛ ولكي يتربى على هذه الصفات والأخلاق عموم المسلمين، ومن ذلك الصقات المفردة الزائدة على الثلاث، ومما ورد في سياق تعديد صفات المطيعين جاء قوله تعالى :

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) / آل عمران

فقد ذكر- تعالى - ههنا صفات خمسة متتابعة (الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) :

- أما (الصفة الأولى) فهي كونهم صابرين. والمراد: كونهم صابرين في أداء الواجبات والمندوبات، وفي ترك المحظورات، وكونهم صابرين في كل ما ينزل بهم من المحن والشدائد، وذلك بأن لا يجزعوا، بل يكونوا راضين بقلوبهم عن الله تعالى.

وأما (الصفة الثانية) فهي كونهم صادقين، ولفظ الصدق قد يرجى على القول والفعل والنية، فالصدق في القول مشهور وهو مجانبة الكذب، والصدق في الفعل الإتيان به وترك الانصراف عنه قبل تمامه. يقال : صدق فلان في القتال وصدق في الحملة، يقال في ضده: كذب في القتال وكذب في الحملة، والصدق في النية إمضاء العزم والإقامة عليه حتى يبلغ الفعل . وأما (الصفة الثالثة) فهي كونهم قانتين، وهوعبارة عن الدوام على العبادة والمواظبة عليها.

وأما (الصفة الرابعة) فهي كونهم منفقين، ويدخل في إنفاق المرء على نفسه وأهله وأقاربه وصلة رحمه وفي الزكاة والجهاد وسائر وجوه البر.

وأما (الصفة الخامسة) فهي كونهم مستغفرين بالأسحار، والسَحَر الوقت الذي قبل طلوع الفجر، وتسحر إذا أكل في ذك الوقت.

والمراد منه : مَنْ يصلي بالليل ثم يتبعه بالاستغفار والدعاء؛ لأن الإنسان لا يشتغل بالدعاء والاستغفار إلا أن يكون قد صلى قبل ذلك؛ فقوله تعالى: (والمستغفرين بالأسحار) يدل على أنهم كانوا قد صلوا بالليل .[1]

١ ينظر: تفسير الفخر: ٧ / ٢١٨- ط دار الفكر / أولى - ١٩٨١م .

وهذه الصفات الخمسة إشارة إلى تعديد الصفات لموصوف واحد هم (المتقون)، فكان الواجب حذف واو العطف عنها كما في قوله: { هو الله الخالق البارئ المصور } إلا أنه ذكر هاهنا واو العطف وأظن والعلم عند الله أن كل مَن معه واحدة من هذه الخصال دخل تحت المدح العظيم ، واستوجب هذا الثواب الجزيل.

فلله – سبحانه وتعالى – على عباده أنواع من التكليف، والصابر منهم هو مَن يصبرعلى أداء جميع أنواعها، ثم إن العبد قد يلتزم من عند نفسه أنواعا أُخَر من الطاعات. وإما بسبب الشروع فيه وكمال هذه المرتبة أنه إذا التزم طاعة أن يصدق نفسه في التزامه، وذلك بأن يأتي بذلك للملتزم من غير خلل ألبتة، ولما كانت هذه المرتبة متأخرة عن الأُولى؛ لاجرم ذكر سبحانه (الصابرين) أولا.

ثم قال: (الصادقين) ثانيا، ثم إنه – تعالى – ندب إلى المواظبة على هذَيْن النوعَيْن من الطاعة؛ فقال (والقانتين) فهذه الألفاظ الثلاثة للترغيب في المواظبة على جميع أنواع الطاعات .

ثم بعد ذلك ذكر الطاعات المعينة، وكان أعظم وإليه الطاعات قدرا أمران:

(احدهما): الخدمة بالمال، فذكر هنا بقوله (المنفقين).
و(الآخر): الخدمة بالنفس، فذكر هنا بقوله (المستغفرين بالأسحار).

ولعل تقديم ذكر المنفقين على ذكر المستغفرين ههنا؛ لأن هذه الآية

في شرح عروج العبد من الأدنى إلى الأشرف فلا جرم وقع الختم بذكر المستغفرين بالأسحار . [1]

فقوله: (الصابرين والصادقين) الآية صفات (للذين اتقوا)، أو صفات للذين يقولون، والظاهر الأول. وذكر هنا أصول فضائل صفات المتدينين ، وهي :

- الصبر الذي هو ملاك فعل الطاعات وترك المعاصي.
- والصدق الذي هو ملاك الاستقامة وبث الثقة بين أفراد الأمة.
- والقنوت، وهو ملازمة العبادات في أوقاتها وإتقانها وهو عبادة نفسية جسدية.
- والإنفاق وهو أصل إقامة أود الأمة بكفاية حاج المحتاجين، وهو قربة مالية والمال شقيق النفس.
- وزاد الاستغفار بالأسحار وهو الدعاء والصلاة المشتملة عليه في أواخر الليل، والسحر سدس الليل الأخير؛ لأن العبادة فيد أشد إخلاصا، لما في ذلك الوقت من هدوء النفوس، ولدلالته على اهتمام صاحبه بأمر آخرته، فاختار له هؤلاء الصادقون آخر الليل؛ لأنه وقت صفاء السرائر، والتجرد عن الشواغل. وعطف الصفات في قوله: (الصابرين)، وما بعده: سواء كان قوله: (الصابرين) صفة ثانية، بعد قوله: (الذين يقولون)، أم كان ابتداء الصفات بعد البيان طريقة ثانية من طريقتي تعداد الصفات في الذكر في كلامهم، فيكون بالعطف وبدونه، مثل تعدد الأخبار والأحوال؛ إذ ليست حروف العطف بمقصورة على

---

1 ينظر: تفسير الفخر : ٧ / ٢١٩ .

تشريك الذوات.

وفـي الكشـاف؛ أن فـي عطـف الصـفات نكتـة زائـدة علـى ذكرهـا بـدون العطف وهي الإشارة إلى كمال الموصوف في كل صفة منها، وأحال تفصيله على ما تقدم له في قوله تعالى: (والـذين يؤمنـون بمـا أنـزل إليك) مـع أنـه لـم يبـين هنالـك شـيئا مـن هـذا، وسـكت الكـاتبون عـن بيـان ذلـك هنـا وهنـاك. وكلامه يقتضي أن الأصل عنده في تعدد الصفات والأخبار ترك العطف فلذلك يكون عطفها مؤذنا بمعنى خصوصي يقصده البليغ، ولعل وجهه أن شأن حرف العطـف أن يسـتغنى بـه عـن تكريـر العامـل فيناسـب المعمـولات، ولـيس كـذلك الصفات، فإذا عطفت فقد نزلت كل صفة منزلـة ذات مستقلة، ومـا ذلـك إلا لقوة الموصوف في تلك الصفة، حتى كأن الواحد صارعددا، كقولهم واحد كألف، ولا أحسب لهذا الكلام تسليما ".[1]

ففـي عطـف الصـفات مـا يـؤذن بكمـال الوصـف؛ لأن العرب تعطفهـا إذا كملت وتتبع بعضها بعضاً إذا تركبت والتأمت، يعني مثل: الرمان حلو حامض – إذا كـان غيـر صـادق الحـلاوة ولا الحموضـة، ففـي العطـف إشـعار بكمـال صبرهم عن العاجلة على ما عينه حكم النظم، في الآيـة السابقة، ومن شأن الصابرعن الدنيا الصدق، لأن أكثر المداهنـة والمراءاة إنمـا ألجأ إليهـا التسـبب إلـى كسب الدنيا، فإذا رغب عنها لـم يحملـه علـى تـرك الصدق حامل، فيتحقق بـه فيصدق في جميع أموره، والصدق مطابقة أقواله وأفعالـه لباطن حالـه فـي نفسـه وعرفـان قلبـه .

١ ينظر: التحرير والتنوير : ٣ / ١٨٥ .

فباجتماع هذه الأوصاف السبعة من التقوى والإيمان والصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار كانت الآخرة خيراً لهم من الدنيا وما فيها، وقد بان بهذا محكم آيات الخلق من متشابهها بعد الإعلام بمحكم آيات الأمر ومتشابهها، فتم بذلك منزل الفرقان في آيات الوحي المسموع والكون المشهود .

ولعله – سبحانه وتعالى – أشار بهذه الصفات الخمس المتعاطفة إلى دعائم الإسلام الخمس، فأشار بالصبر إلى الإيمان، وبالصدق إلى الزكاة المصدقة لدعواه، وبالقنوت الذي مدار مادته على الإخلاص إلى الصلاة التي هي محل المراقبة، وبالإنفاق إلى الحج الذي أعظم مقوماته المال، وبالاستغفار إلى الصيام الذي مبناه التخلي من أحوال البشر والتحلي بحلية الملك لا سيما في القيام ولا سيما في السحر.

<u>وسر ترتيبها</u> أنه لما ذكر ما بين العبد والخالق في التوحيد الذي هو العدول أتبعه ما بينه وبين الخلائق في الإحسان، ولما ذكر عبادة القلب والمال ذكر عبادة البدن الدالة على الإخلاص في الإيمان، ولما ذكر عبادة البدن مجرداً بعد عبادة المال مجرداً ذكر عبادة ظاهرة مركبة منهما، شعارها تعرية الظاهر، ثم أتبعه عبادة بدنية خفية، عمادها تعرية الباطن، فختم بمثل ما بدأ به، وهو ما لا يطلع عليه حق الاطلاع إلا الله سبحانه وتعالى .[1]

= وفي سياق التنويه بأهل غزوة تبوك وهم جيش العسرة؛ ليكون توطئة وتمهيدا لذكر التوبة على الذين تخلفوا عن الغزوة وكانوا صادقين في أيمانهم؛ وإنباء

---

١ ينظر: نظم الدرر : ٤ / ٢٨١ : ٢٨٥ .

الذين أضمروا الكفر نفاقا بأنهم لا يتوب الله عليهم ولا يستغفر لهم رسوله صلى الله عليه وسلم. جاء قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) / التوبة

فبعد أن بين الله تعالى ورغب بصفقة الشراء الربانية ، والتي يتم بموجبها أن يتلف العبد الصالح نفسه ويبذل ماله رخيصا؛ دخولا في صفقة الله؛ وحبا لأمره؛ وطمعا في جنته؛ ليفوز فوزا عظيما. هذا البيان يتلوه بيان لصفات الذين تمت الصفقة معهم، أو الشروط التي يجب أن يتصف بها صاحب البيعة مع الله؛ قال تعالى: { التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله }. يقول أبو حيان : " وهذه أوصاف الكملة من المؤمنين ، ذكرها الله – تعالى ؛ ليستبق إلى التحلي بها عباده؛ وليكونوا على أوْفَى درجات الكمال " .[١]

ويقول الشيخ الطاهر: " أسماء الفاعلين هنا أوصاف للمؤمنين من

---

١ البحر المحيط : ٥/١٠٦؛ وينظر نظم الدرر : ٩/٢٦ ؛ وأهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة : دراسة تحليلية – الباحث / حسين عبدالله طه الخطيب – ماجستير – ٢٠٠٨ م / مخطوط في كلية اصول الدين – الجامعة الاسلامية غزة.

قوله: (إن الله اشترى من المؤمنين) فكان أصلها الجر، ولكنها قطعت عن الوصفية وجعلت أخبارا لمبتدأ محذوف هو ضمير الجمع؛ اهتماما بهذه النعوت اهتماما أخرجها عن الوصفية إلى الخبرية، ويسمى هذا الاستعمال نعتا مقطوعا، وما هو بنعت اصطلاحي ولكنه نعت في المعنى ".[1]

ومما لا شك في أن من شروط حسن النظم أن ترتب الألفاظ ترتيبا صحيحا، فتقدم منها ما كان يحسن تقديمه، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره، ولا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا تؤخر منها ما يكون التقديم به أليق، وأن يتحرى أن يجعل ترتيب الألفاظ على حسب ترتيب المعاني في النفس؛ ليخرج من صفة التعقيد في النظم، أو المعاظلة المعنوية الذي يسببه سوء ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعاني بسبب تقديم، أو تأخير، أو حذف، أو إضمار، أو غير ذلك.

ولا خلاف في أن القرآن الكريم قد بلغ الذروة في فن ترتيب الألفاظ تقديما وتأخيرا، ورصفها بجنب بعض من خلال وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب المراعي للمقام، والسياق اللذين تردان فيه؛ ففي قوله تعالى: { التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين }، فيلحظ معنى: الانتقال من الخاص إلى العام؛ لأن ترتيب هذه الصفات في غاية من الحسن؛ إذ بدأ أولا بما يخص الإنسان مرتبة على ما سعى، ثم بما يتعدى من هذه الأوصاف من الإنسان لغيره وهو الأمر بالمعروف

---

١ التحرير والتنوير : ١١ / ٤٢ .

والنهي عن المنكر، ثم بما شمل ما يخصه في نفسه وما يتعدى إلى غيره، وهو الحفظ لحدود الله؛ فجاء بترتيب هذه الصفات في الذكرعلى أحسن نظم وهو ظاهربالتأمل، فإنه قدم التوبة أولا ثم ثنى بالعبادة إلى أخره؛ فعانق هذه الصفات تعانقا متلائما يستدعي سابقها تاليها، ولتجمع معارج الترقي من البداية إلى النهاية، مبتدءا بالتوبة، ومتوسط بالعبادات، وخاتما بالبشارة .[1]

ومما هو ملاحظ في تنسيق تلك الصفات أن الصفات الأُوَل إلى قوله سبحانه: (والآمرون) صفات محمودة للشخص في نفسه، وهذه له باعتبار غيره؛ فلذا تغاير تعبير الصفتين؛ فترك العاطف في القسم الأول وعطف في الثاني .

ولما كان لابد من اجتماع الأول في شئ واحد ترك فيها العطف؛ لشدة الاتصال. بخلاف هذه فإنه يجوز اختلاف فاعلها ومن تعلقت به؛ وهذا هو الداعي لإعراب (التائبون) مبتدأ موصوفا بما بعده، و(الآمرون) خبره؛ فإنه قيل: الكاملون في أنفسهم المكملون لغيرهم .[2]

وقد نقل البقاعي عن الأستاذ أبي الحسن الحرالي قوله: " إذا أتبعت بعض الصفات بعضاً من غير عطف علم أنها غير تامة، فإذا عطفتها أردت التمكن فيها والعراقة والتمام .

---

١ ينظر:الدر المصون– السمين الحلبي: ٦/ ١٢٩ ، ١٣٠– تح د/ أحمد محمد الخراط – دار العلم / دمشق.

٢ ينظر: روح المعاني : ١١ / ٣٢.

فأعلم سبحانه أن المراد فيما تقدم من الأوصاف الإتيان بما أمكن منها، فأتى بها اتباعاً دون عطف لذلك، وأشار إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوقوف عند الحدود لا يقنع منه إلا بالتمام؛ لأن المقصر في شيء من ذلك إما راض بهدم الدين وإما هادم بنفسه، فيجب التجرد التام فيه؛ لأن النهي أصعب أقسام العبادة؛ لأنه متعلق بالغير وهو مثير للغضب موجب للحمية وظهور الخصومة، فربما كان عنه ضرب وقتل؛ فلذلك عطفها ولم يتبعها فقال: { والناهون } أي بغاية الجد { عن المنكر } أي البدعة.[1]

ويقول الشيخ الطاهر – رحمه الله تعالى – : " المناسبة في عطف هذين دون غيرهما من الأوصاف أن الصفات المذكورة قبلها في قوله:(الراكعون الساجدون) ظاهرة في استقلال بعضها عن بعض. ثم لما ذكر (الراكعون الساجدون) علم أن المراد الجامعون بينهما، أي: المصلون بالنسبة إلى المسلمين. ولأن الموصوفين بالركوع والسجود ممن وعدهم الله في التوراة والإنجيل كانت صلاة بعضهم ركوعا فقط، قال تعالى في شأن داود عليه السلام (وخر راكعا وأناب)، وبعض الصلوات سجودا فقط كبعض صلاة النصارى، قال تعالى: (يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين). ولما جاء بعده (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) وكانا صفتين مستقلتين عطفتا بالواو؛ لئلا يتوهم اعتبار الجمع بينهما كالوصفين اللذين قبلهما وهما (الراكعون الساجدون).[2]

---

١ نظم الدرر : ٩ / ٢٧ ، ٢٨.

٢ التحرير والتنوير: ١١ / ٤١.

وقدم الأول؛ لأن المكمل لا يكون مكملا حتى يكون كاملا في نفسه، وبهذا يتسق المنظم أحسن اتساق من غير تكلف . وهو وجه وجيه للعطف في البعض وترك العطف في الآخر.[١]

من ثَم فقد جاء ترتيب هذه الصفات في غاية من الحسن؛ إذ بدأ أولا بما يخص الإنسان مرتبة على ما سعى، ثم يتعدى من هذه الأوصاف من الإنسان لغيره، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بما شمل بما يخصه في نفسه وما تعدى إلى غيره، وهو الحفظ لحدود الله .[٢]

والحاصل أن الوصف الأول للتجرد عن ربقة مألوف خاص وهو شرك المعصية بشركه أو غيره، والثاني للتجرد عن قيود العادات إلى قضاء العبادات، والثالث لبلوغ الغاية في تهذيب الظاهر. والرابع للتوسع إلى التجرد عن قيود الباطن، والخامس والسادس للجمع بين كمال الباطن والظاهر، والسابع للسير إلى إفاضة ذلك على الغير، والثامن للدوام على تلك الحدود بترك جميع القيود. فمقصود الآية العروج من الحضيض الجسماني إلى الشرف الروحاني.[٣]

وفي ابتداء الأيتين بالوصف المشعر بالرسوخ في الإيمان الذي هو الوصف المتمم للعشر وختمهما بمثله إشارة إلى أن هذه مائدة لا يخلس عليها طفيلي، وأن من عدا الراسخين في درجة الإهمال لا كلام معهم ولا التفات بوجه

---

١ ينظر روح المعاني الألوسي : ٣٢/١١ .

٢ البحر المحيط : ١٠٧/٥؛ وينظر: دلالات التقديم والتأخير – د/ المسيري : ص ٤٠٧.

٣ نظم الدرر : ٩ / ٢٨ .

إليهم.[1]

= وفي سياق تكريم أمهات المؤمنين باستخدام ألطف العبارات وأخفها عند تهديدهن بالطلاق والاستبدال؛ جاء قوله تعالى في سورة التحريم : (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥))/ التحريم .

فعندما هددت أمهات المؤمنين بالاستبدال بهن غيرهن خيراً منهن جاء تفصيل الخيرية في الصفات السبع التي ذكرت في الآية، وكلها صفات تدل على المستوى الإيماني الرفيع والأخلاق النبيلة وإيثار الآخرة على الفانية .

ثم وصف الأزواج التي كان يبدله فقال:
(مسلمات) أي: خاضعات لله بالطاعة.
(مؤمنات) مصدقات بتوحيد الله تعالى مخلصات.
(قانتات) طائعات ،وقيل: قائمات بالليل للصلاة ، وهذا أشبه؛ لأنه ذكر السائحات بعد هذا.
(سائحات): الصائمات فلزم ان يقوم قيام الليل مع صيام النهار ، وقرىء (سيحات)، وهي أبلغ. وقيل للصائم سائح؛ لأن السائح لا زاد معه، فلا يزال ممسكا إلى أن يجد مَن يطعمه، فشبه بالصائم الذي يمسك إلى أن يجئ وقت إفطاره. وقيل سائحات: مهاجرات .

ثم قال تعالى: (ثيبات وأبكارا)؛ لأن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

١ المرجع السابق : ٩ / ٢٩ .

في الدنيا والآخرة بعضهن من الثيبات وبعضهن من الأبكار؛ فالذكر على حسب ما وقع. وفيه إشارة إلى أن تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ليس على حسب الشهوة والرغبة بل على حسب ابتغاء مرضات الله تعالى[1]. وبدأ في وصفهن بالإسلام وهو الانقياد، ثم بالإيمان وهو التصديق، ثم بالقنوت وهو الطواعية، ثم بالتوبة وهي الإقلاع عن الذنب، ثم بالعبادة وهي التلذذ، ثم بالسياحة وهي كناية عن الصوم وهذه الصفات تجتمع ، وأما الثيوبة والبكارة فلا يجتمعان؛ فلذلك عطف أحدهما على الآخر، ولو لم يأت بالواو لاختل المعنى. وذكر الجنسين؛ لأن في أزواجه صلى الله عليه وسلم من تزوجها بكرا.[2]

وعن وجه تنسيق الصفات الواردة في النظم الحكيم يقول البقاعي: " ولما حذر بما تقدم، زاد في التحذير ما يقطع القلوب؛ لأن أشد ما على المرأة أن تطلق، ثم إذا طلقت أن تستبدل بها، ثم أن يكون البدل خيراً منها؛ فقال مبيناً لأدنى أنواع المظاهرة سائقاً الأمر مساق الرجاء إشارة إلى أنه يكفي العاقل في الخوف تجويز احتمال الضرر فكيف إذا كان الأمر حتماً لأن من المعلوم أن " عسى " من الله على طريق الكبراء لا سيما الملوك في اكتفائهم بالإشارات والرموز فمن هنا كانت واجبة لأنه ملك الملوك وهو ذو الكبرياء في الحقيقة لا غيره { عسى ربه } أي المحسن إليه بجميع أنواع الإحسان التي عرفتموها وما لم تعرفوه جدير وحقيق،.... ولما وعد بما ذكر، وكان أول منظور إليه الظاهر، فصل ذلك الوعد وفسر الخيرية بادئاً بقوله: {مسلمات } أي ملقيات لجميع قيادهن ظاهراً وباطناً لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم على وجه الخضوع ولما

---

١ ينظر تفسير الفخر :٣٠/ ٤٥

٢ ينظر البحر المحيط ٨/ ٢٨٧ وينظر الكشاف ٦/ ١٦٠

كان المشاهد من الإسلام إنما هو الظاهر قال: { مؤمنات } أي راسخات في القوة العلمية بتصديق الباطن.

ولما كان ذلك قد يكون فيه نوع شوب قال: { قانتات } أي مخلصات في ذلك لا شائبة في شيء منه فهن في غاية ما يكون من إدامة الطاعة له من الذل والانكسار والمبادرة إلى امتثال أمره صلى الله عليه وسلم في المنشط والمكره.

ولما كان الإنسان مجبولاً على النقصان، وكان الإخلاص يدل صاحبه على تقصيره فكان ربما فتره ذلك، قال تسهيلاً لخدمته وتقريباً لدوام طاعته معلماً الأدب لمحتاجه { تائبات } أي راجعات من الهفوات أو الزلات سريعاً إن وقع منهن شيء من ذلك. ولما كان هذا مصححاً للعبادة مسهلاً لدوامها قال: {عابدات } أي مديمات للعبادة بسبب إدامة تجديد التوبة. ولما كان دوام العبادة مسهلاً للخروج عن الدنيا قال: { سائحات } أي متصفات بصفات الملائكة من التخلي عن الدنيا والاستغراق في الآخرة بما أدناه الصيام ماضيات في ذلك غاية المضاء ليتم الانقياد لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأن من كان هكذا لم يكن له مراد، فكان تابعاً لربه في أمره دائماً ويصير لطيف الذات حلو الشمائل، قال الملوي: والمرأة إذا كانت كثيرة الصيام قليلة الأكل يقل عرقها ويصغر كرشها وتلطف رائحتها وتخف حركتها لما يراد منها – انتهى. وسوق هذه الأوصاف هذا السياق في عتاب من هو متصف بها معرف أن المراد منها التمام لا سيما وهي لا يوجد وصف منها على سبيل الرسوخ إلا كان مستلزماً لسائرها، فلذلك لم يحتج في تعدادها إلى العطف بالواو. والتجريد عنه أقعد في الدلالة على إرادة اجتماعها كلها. ولما

أكمل الصفات الدينية النافعة في أمر العشرة ولم يبق إلا الصفات الكونية وكان التنويع إلى عارفة بالعشرة وباقية على أصل الفطرة، ألذ وأشهى إلى النفس، قال مقسماً للنساء المتصفات بالصفات الست عاطفاً ثاني الوصفين بالواو للتضاد { ثيبات } قدمهن لأنهن أخبر بالعشرة التي هذا سياقها {وأبكاراً} ".[1]

وهذه الصفات انتصبت على أنها نعوت ل(أزواجا)، ولم يعطف بعضها على بعض بالواو؛ لأجل التنصيص على ثبوت جميع تلك الصفات لكل واحدة منهن، ولو عطفت بالواو لاحتمل أن تكون الواو للتقسيم، أي: تقسيم الأزواج إلى من يثبت لهن بعض تلك الصفات دون بعض.

ألا ترى أنه لما أريدت إفادة ثبوت إحدى صفتين دون أخرى من النعتين الواقعين بعد ذلك كيف عطف بالواو قوله : (وأبكارا)؛ لأن الثيبات لا يوصفن بأبكار،والأبكار لا يوصفن بالثيبات. قلت: وفي قوله تعالى (مسلمات)، إلى قوله (سائحات) محسن الكلام المتزن؛ إذ يلتئم من ذلك بيت من بحر الرمل التام :

فاعلتن فاعلتن فاعلتن   فاعلاتن فاعلاتن فاعلتن

ووجه هذا التفصيل في الزوجات المقدرات؛ لأن كلتا الصفتين محاسنها عند الرجال؛ فالثيب أرعى لواجبات الزوج، وأميل مع أهوائه، وأقوم على بيته، وأحسن لعابا، وأبهى زينة، وأحلى غنجا. والبكر أشد حياء، وأكثر غرارة ودلا؛ وفي ذلك مجلبة للنفس، والبكر لا تعرف رجلا قبل زوجها، ففي نفوس الرجال خلق من التنافس في المرأة التي لم يسبق إليها غيرهم. فما

١ ينظر : نظم الدرر: ٢٠/ ١٩١ : ١٩٦.

اعتزت واحدة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بمزية إلا وقد أنبأها الله بأن سيبدله خيرا منها في تلك المزية أيضا. وهذا هو المعنى التاسع عشر من معاني الموعظة والتأديب في هذه الآيات.

وتقديم وصف (ثيبات)؛ لأن أكثر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لما تزوجهن كن ثيبات.

ولعله إشارة إلى أن الملام الأشد موجه إلى حفصة قبل عائشة وكانت حفصة ممن تزوجهن ثيبات وعائشة هي التي تزوجها بكرا. وهذا التعريض أسلوب من أساليب التأديب؛ كما قيل الحر تكفيه الإشارة.[1]

١ ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨ / ٣٦١، ٣٦٢ .

المبحث الخامس
التناسب البلاغي في تناسُق الصفات المفردة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد في سياق الحديث عن الحياة الدنيا

جاء حديث القرآن الكريم عن " الحياة الدنيا " في آيات كثيرة، والحياة الدنيا المتحدث عنها عبارة عن الأشغال والتصرفات والفكر التي هي مختصة بالحياة الدنيا. وأما ما كان من ذلك في طاعة الله وسبيله، وما كان من الضرورات التي تقيم الأَوَد وتُعِينُ على الطاعات، فلا مدخل له في ذلك .

وقد جاءت تلك الآيات لتقرر صراحة أن نعلم أن الحياة الدنيا لعب ولهو، وجميعها جاءت بتسلسل وتدرج في التأكيد على تلك الحقيقة، وذلك في سياق الحث على الإنفاق الواجب وغيره .

قال تعالى: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)) / الحديد

فقد جاءت الآية الكريمة مشتملة على صفات مفردة زائدة على الثلاث لموصوف واحد (الحياة الدنيا)؛هذه الصفات هي (لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) وذلك عقب التحريض على الصدقات والإنفاق بالإشارة إلى دحض سبب الشح أنه الحرص على استبقاء المال لإنفاقه في لذائذ الحياة الدنيا، فضرب لهم مثل الحياة الدنيا بحال محققرة على أنها زائلة

تحقيرا لحاصلها وتزهيدا فيها؛ لأن التعلق بها يعوق عن الفلاح .

كل ذلك في سياق الحث على الإنفاق الواجب وغيره، وأشير إلى أنها ينبغي أن تتخذ الحياة وسيلة بنعيم الدائم في الآخرة، ووقاية من العذاب الشديد، وما عدا ذلك من أحوال الحياة فهو متاع قليل؛ ولذلك أعقب مثل الحياة الدنيا بالإخبار عن الآخرة بقوله: (وفي الآخرة عذاب)الخ. وقد ذكر هنا من شؤون الحياة ما هو الغالب على الناس وما لا يخلو من مفارقة تضييع الغايات الشريفة أو اقتحام مساو ذميمة، وهي أصول أحوال المجتمع في الحياة، وهي أيضا أصول أطوار آحاد الناس في تطور كل واحد منهم، فإن اللعب طور سن الطفولة والصبا، واللهو طور الشباب، والزينة طور الفتوة، والتفاخر طور الكهولة، والتكاثر طور الشيخوخة. وذكر هنا خمس صفات : ف<u>(اللعب):</u> اسم لقول أو فعل يراد به المزاح والهزل لتمضية الوقت أو إزالة وحشة الوحدة، أو السكون، أو السكوت، أو لجلب فرح ومسرة للنفس، أو يجلب مثل ذلك للحبيب، أو يجلب ضده للبغيض، كإعمال الأعضاء وتحريكها دفعا لوحشة السكون، والهذيان المقصود لدفع وحشة السكوت، ومنه البعث، وكالمزاح مع المرأة لاجتلاب إقبالها ومع الطفل تحببا أو إرضاء له. واللعب: هو الغالب على أعمال الأطفال والصبيان فطور الطفولة طور اللعب ويتفاوت غيرهم في الإتيان منه فيقل ويكثر بحسب تفاوت الناس في الأطوار الأولى من الإنسان وفي رجاحة العقول وضعفها. واللعب يكثر في أحوال الناس في الدنيا فهو جزء عظيم من أحوالها وحسبك أنه يعمر معظم أحوال الصبا. و<u>(اللهو):</u> اسم لفعل أو قول يقصد منه التذاذ النفس به وصرفها عن ألم حاصل من تعب الجسد أو الحزن أو الكمد، يقال: لها عن الشيء، أي تشاغل

عنه.

ويغلب اللهو على أحوال الشباب فطور الشباب طوره، ويكثر اللهو في أحوال الدنيا من تطلب اللذات والطرب.

و(الزينة): تحسين الذات أو المكان بما يجعل وقعه عند ناظره مسرا له، وفي طباع الناس الرغبة في أن تكون مناظرهم حسنة في عين ناظريهم ،وذلك في طباع النساء أشد، وربما كان من أسباب شدته غرورا بأنفسهم بل ذلك؛ لتكون حسنة في الناس من الرجال والنساء. ويغلب التزين على أحوال الحياة فإن معظم المساكن والملابس يراد منه الزينة، وهي ذاتية ومعنوية، ومن المعنوية ما يسمى في أصول الفقه بالتحسيني.

و(التفاخر) : الكلام الذي يفخر به، والفخر: حديث المرء عن محامده والصفات المحمودة منها فيه بالحق أو الباطل. وصيغ منه زنة الفاعل لأن شأن الفخر أن يقع بين جانبين كما أنبأ به تقييده بظرف (بينكم).

والناس يتفاخرون بالصفات المحمودة في عصورهم وأجيالهم وعاداتهم، فمن الصفات ما الفخر به غير باطل. وهي الصفات التي حقائقها محمودة في العقل أو الشرع. ومنها ما الفخر به باطل من الصفات والأعمال التي اصطلح قوم على التمدح بها وليست حقيقة بالمدح مثل التفاخر بالإغلاء في ثمن الخمور وفي الميسر والزنى والفخر بقتل النفوس والغارة على الأموال في غير حق.

وأغلب التفاخر في طور الكهولة واكتمال الأشد لأنه زمن الإقبال على

الأفعال التي يقصد منها الفخر.

والتفاخر كثيرا في أحوال الناس في الدنيا، ومنه التباهي والعجب، وعنه ينشأ الحسد.

و(التكاثر): تفاعل من الكثرة، وصيغة التفاعل هنا للمبالغة في الفعل بحيث ينزل منزلة من يغالب غيره في كثرة شيء، فإنه يكون أحرص على أن يكون الأكثر منه عنده فكان المرء ينظر في الكثرة من الأمر المحبوب إلى أمر آخر له الكثرة منه.

والمعنى: أن الله أقام نظام أحوال الناس في الحياة الدنيا على حكمة أن تكون الحياة وسيلة لبلوغ النفوس إلى ما هيئها الله له من العروج إلى سمو الملكية كما دل عليه قوله : (إني جاعل في الأرض خليفة)، فكان نظام هذه الحياة على أن تجري أمور الناس فيها على حسب تعاليم الهدى للفوز بالحياة الأبدية من نعيم الحق بعد الممات والبعث، فإذا الناس قد حرفوها على مهيعها، وقد تضمن ذلك قوله تعالى : (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون). [1]

يقول البقاعي: " ولما ذكر سبحانه حال الفريقين: الأشقياء والسعداء، فتقرر بذلك أمر الآخرة، فعلموا أنها الحيوان الذي لا انقضاء له من إكرام أو هوان، وكان الموجب للهوان فيها إنما هو الإقبال على الدنيا لحضورها ونسيان

---

١ ينظر: التحرير والتنوير: ٢٧ / ٤٠٠ – ٤٠٣.

الآخرة لغيابها، قال منتجاً مما مضى مبيناً لحقيقة ما يرغب فيه المكلف المركب على الشهوة من العاجلة بما نزهه فيه مصدّراً له بما يوجب غاية اليقظة والحضور: { اعلموا } أي أيها العباد المبتلون، وأكد المعنى بزيادة { ما } لما للناس من الغفلة عنه فقال قاصراً قصر قلب: { إنما الحيوة الدنيا } أي الحاضرة التي رغبت في الزهد فيها والخروج عنها بالصدقة والقرض الحسن { لعب } أي تعب لا ثمرة له فهو باطل كلعب الصبيان {ولهو} أي شيء يفرح الإنسان به فيلهيه ويشغله عما يعنيه ثم ينقضي كلهو الفتيان، ثم أتبع ذلك عظم ما يلهي في الدنيا فقال: { وزينة } أي شيء يبهج العين ويسر النفس كزينة النسوان، وأتبعها ثمرتها فقال: { وتفاخر } أي كتفاخر الأقران يفتخر بعضهم على بعض.

ولما كان ذلك مخصوصاً بأهل الشهوات قال: { بينكم } أي يجر إلى الترفع الجارّ إلى الحسد والبغضاء، ثم أتبع ذلك ما يحصل به الفخر فقال: {وتكاثر } أي من الجانبين { في الأموال } أي التي لا يفتخر بها إلا أحمق لكونها مائلة { والأولاد } الذين لا يغتر بهم إلا سفيه لأنهم الأعداء، وأن جميع ما ذكر زائل وأن الدنيا آفاتها هائلة، وإنما هي فتنة وابتلاء يظهر بها الشاكر من غيره، ثم إلى ذلك كله قد يكون ذهابه عن قرب فتكون على أضداد ما كان عليه، فيكون أشد في الحسرة، ومطابقة ذلك لما بعده ان الإنسان ينشأ في حجر وليه فيشب ويقوى ويكسب المال والولد وثم تغشاه الناس فيكون بينهم أمور معجبة وأحوال ملهية مطربة، فإذا تم شبابه وأطفأه مجيئه وذهابه وأشكاله وأترابه، أخذ في الانحطاط ولا يزال حتى يشيب ويسقم ويضعف ويهرم وتصيبه النوائب والقوارع والمصائب في ماله وجسمه وأولاده وأصحابه، ثم في آخر ذلك يموت، فإذا قد اضمحل أمره ونسي عما قليل ذكره، وصار ماله لغيره

وزينته متمتعاً بها سواه فالدنيا حقيرة وأحقر منها طالبها وأقل منها خطر المزاحم فيها، فما هي إلا جيفة، وطلاب الجيفة ليس لهم خطر، وأخسهم من بخل بها، قال القشيري: وهذه الدنيا المذمومة هي ما يشغل العبد عن الآخر فكل ما يشغله عن الآخرة فهو الدنيا ".[1]

---

١ ينظر: نظم الدرر: ١٩ / ٢٨٦ : ٢٨٨.

المبحث السادس
التناسب البلاغي في تناسُق الصفات المفردة الزائدة على الثلاث للموصوف الواحد في سياق الحديث عن الكافرين

تحدث القرآن الكريم عن الكافرين المكذبين في آيات متعددة، وعدد لهم صفات متنوعة كلها تنافي الشجاعة المقتضية لإحسان صاحبها إلى كل أحد وأن لا يحسب له حساباً ولا يوصل إليه أذى إلا بعد ظهور شره فيعامله حينئذ بحسب العدل بما لا يرزىء بالمروءة.[1]

ففي سياق النهي عن طاعة المكذب، وبيان علامات المُكذِب جاء قوله تعالى:

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣)) / القلم

والمشار إليه بهذا مع إرادة العموم قيل: الوليد بن المغيرة، وقيل: الأخنس بن شريق، وقيل: الأسود بن عبد يغوث، وقال ابن قتيبة: لا نعلم أن الله – تعالى – وصف أحداً ولا ذكر من عيوبه ما ذكرمن عيوب الوليد بن المغيرة .[2]

والتنسيق الوارد بين الصفات المفردة الزائدة على الثلاث في الآيات

١ ينظر : نظم الدرر : ٢٥ / ٣٠٠ : ٣٠٣ .

٢ ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩ / ٧٥ .

الكريمة قد جاءت متناغمة ؛ فإن الهمّاز هو العيّاب وذلك لا يفتقر إلى مشي، بخلاف النميمة فإنها نقل للحديث من مكان إلى مكان عن شخص إلى شخص. فبدأ بالهماز، وهو الذي يعيب الناس، وهذا لا يفتقر إلى مشي ولا حركة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو المشي بالنميمة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو أنه يمنع الخير عن الآخرين، وهذه مرتبة أبعد في الإيذاء مما تقدمها.

ثم انتقل إلى مرتبة أخرى أبعد مما قبلها وهو الاعتداء؛ فإن منع الخير قد لا يصحبه اعتداء، أما العدوان فهو مرتبة أشد في الإيذاء. ثم ختمها بقوله أثيم، وهو وصف جامع لأنواع الشرور؛ فهي مرتبة أخرى أشد إيذاءً.

جاء في بدائع الفوائد : وأما تقدم همّاز على مشّاء بنميم فبالرتبة؛ لأن المشي مرتب على القعود في المكان. والهماز هو العيّاب وذلك لا يفتقر إلى حركة وانتقال من موضعه بخلاف النميم. وأما تقدم مناع للخير على معتد فبالرتبة أيضاً؛ لأن المناع يمنع من نفسه والمعتدي يعتدي على غيره ونفسه قبل غيره.[1]

ومعنى ثالث : وهو أن المعتدي الظالم لعباد الله عدوانا عليهم، والأثيم

---

١ ينظر : بدائع الفوائد – محمد بن قيم الجوزية : ١ / ١٢٠ ، ١٢١ – تحقيق: علي بن محمد العمران – دار عالم الوائد للنشر والتوزيع . (د.ت)؛ والتعبير القرآني – د / فاضل صالح السامرائي – ص ٥٦ – دار عمار – الطبعة الرابعة – ٢٠٠٦م. ودلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم – د / المسيري : ص٦٦١ .

الظالم لنفسه بالفجور، فكان تقديمه هنا على الأثيم أولى؛ لأنه في سياق ذمه، والنهي عن طاعته، فمن كان معتديا على العباد ظالما لهم؛ فهو أحرى بأن لا تطيعه وتوافقه .

وفيه معنى رابع : وهو أنه قدمه على الأثيم ليقترن بما قبله، وهو وصف المنع للخير، فوصفه بأنه لا خير فيه للناس، وأنه مع ذلك معتد عليهم، فهو متأخر عن المناع؛ لأنه يمنع خيره أولا ثم يعتدي عليهم ثانيا، ولهذا يحمد الناس من يوجد لهم الراحة ويكف عنهم الأذى، ... وهذا هو حقيقة التصوف، وهذا لا راحة يوجدها ولا أذي يكفه .

وأما تقديم { هماز } على { مشآء بنميم }؛ ففيه معنى آخر غير ما ذكره، وهو أن همزه عيب للمهموز، وإزراء به، وإظهار لفساد حاله في نفسه، وهذه قالة تختص المهموز لا تتعداه إلى غيره، والمشي بالنميمة يتعداه إلى من ينم عنده، فهو ضررمتعد، والهمز ضرره لازم للمهموز إذا شعر به؛ فانتقل من الأذي اللازم إلى الأذى المتعدي المنتشر .[1]

وقد تجلى من المناسبة في مجيء صفات (حلاف، هماز، مشاء، مناع للخير) صفات مبالغة، قال أبو حيان: وجاءت هذه الصفات صفات مبالغة ونوسب فيها فجاء (حلاف) وبعده (مهين)؛ لأن النون فيها تواخ مع الميم، أي: ميم (أثيم)، ثم جاء (هماز مشاء) بصفتي المبالغة، ثم جاء (مناع للخير معتد أثيم) صفات مبالغة.[2]

---

١ المراجع السابقة .

٢ البحر المحيط: ١٠ / ٢٣٨.

فبعد أن عدد له – سبحانه وتعالى – من الأوصاف والمثالب والنقائص سبعا أتى بصفتين من أشد معايبه، وهما كونه (عتل بعد ذلك زنيم)؛ بمعنى: أنه سيء الخلقة سيء المعاملة، فالبعدية هنا بعدية في الارتقاء في درجات التوصيف المذكورة، فمفادها مفاد التراخي الرتبي كقوله تعالى: (والأرض بعد ذلك دحاها)[1]على أحد الوجهين فيه.[2]

وهذه الأوصاف متفرخة من الكذب وخبث السجية، فهي كالتفصيل، فكثرة الحلف دالة على فساد القوة العلمية؛ فنشأ عنها سقوط تعظيم الحق؛ فصار صاحبها لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً؛ فلذلك يحلف صادقاً وكاذباً كيفما اتفق.[3]

١ النازعات / ٣٠.

٢ ينظر: التحرير والتنوير: ٢٩ / ٧٤؛ والإعجاز البلاغي في سورة القلم – هناء عابدين عبد الله : ص ٢٧١ ، ٢٧٢ – بحث منشور في المجلة العلمية لكلية الآداب – جامعة أسيوط – العدد الثاني والعشرون – سنة ٢٠٧م.

٣ نظم الدرر : ٢٥ / ٢٩٩ .

خاتمة البحث

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد السادات، وعلى آله وصحبه بعدد ما مضى وما هو آت. ثم أما بعد:

فقد بينت الدراسة وجها من أوجه إعجاز القرآن الكريم، ألا وهو إبراز الأسس التي ركز عليها الترابط بين أجزاء الصفات المفردة المتتابعة للموصوف الواحد؛ ليكشف عن بناء محكم منتظم يمكن الرد من خلاله علي أعداء الإسلام قديما وحديثا الذين رموا القرآن بالتفكك والتنافر. وقد تم ذلك من خلال الكشف عن الأسرار البلاغية ومعرفة المناسبة وارتباط بعضها ببعضٍ وراء تتابع تلك الصفات في هذا النوع من الأساليب الفريدة في نظمها وتناسقها وترتيبها، وبيان أسبابه؛ ويمكن تلخيص أهم ما توصل البحث إليه من نتائج فيما يأتي :

- أن الغالب في صفات الله- عز وجل- مجيؤها غير معطوفة كقوله تعالى:(الرحمن الرحيم)، وقوله تعالى : (هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر) الآية؛ لأنها أسماء له - سبحانه - والمسمى بها واحد، فلم تجر مجرى تعداد الصفات المتغايرة، ولكن مجرى الأسماء المترادفة، نحو: الأسد والليث، وغير ذلك. فأما قوله تعالى:(هو الأول والأخر والظاهر والباطن) ؛ فلأنها ألفاظ متضادة المعاني في أصل موضوعها، فكان دخول الواو صرفا لوهم المخاطب- قبل التفكر والنظر - عن توهم الحال، وأجتماع الأضداد في المجال؛ لأن الشيء لا يكون ظاهرا باطنا من وجه واحد، وإنما يكون ذلك من وجهين مختلفين، فكان

العطف ههنا أحسن من تركه لهذه الحكمة الظاهرة، وفي العطف هنا من بعد رفع الوهم من يستبعد ذلك في ذات واحدة .

وهذا (أصل ثاني) يكشف عن ملمح بياني لهذا النمط من النظم فالإتيان بالواو ههنا قصد إلى رفع توهم استبعاد اجتماع الصفات الموصوف واحد؛ لئلا يتوهم التسوية في خصوص صفة واحدة . وكذلك قوله تعالى: « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، فقد وصف نفسه بما يجمع الوعد والوعيد والترهيب والترغيب، وإنما حسن العطف بين الاسمين الأولين (غافر الذنب ، وقابل التوب)؛ لأنه – سبحانه – يريد تنبيه العباد على أنه يفعل هذا ويفعل هذا ؛ ليرجوه، ويأملوه؛ وبذا يرفع أحتمال أن يقع في خاطر إنسان أنه لا معنى لكونه غافر الذنب إلا بكونه قابل التوب، أما لما ذكر الواو زال هذا الاحتمال؛ لأن عطف الشيء على نفسه محال ومن ثم يدفع أن يتوهم التسوية في خصوص صفة واحدة. وفي هذا دليل على الأصل الثاني، فضلا عما فيه من إرادة الجمع بين الصفتين .

– في تناسُق وترتيب الصفات المفردة الزائدة على الثلاث في الذكر الحكيم نكات بلاغية من أهمها: التعظيم ، وإظهار الكرامة ، وبيان الخصوصية المبتناة من توالي هذه الصفات . كما في قوله تعالى: (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول)؛ إذ جاء بالوصف (شديد العقاب) من غير واو؛للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار. وقد يكون المراد إظهار شدة الذم ، كما في قوله تعالى : (ولا تطع كل حلاف مهين ، همـاز مشـاء بمـيم ، منـاع للخيـر معتـد أثـيم ، عتـل بعـد ذلـك زنـيم) . ومن النكات الأخرى التي ظهرت من خلال عرض الشواهد القرآنية الأخرى في

الدراسة : إظهار الاهتمام ، والتحقيق ، والتقرير ، والتوكيد ، والتخصيص، والتبيين ، والمدح ، فهذه من دلالات تنسيق الصفات المفردة بعطف أو بغير عطف.

– إن تناسُق الصفات المفردة المتتابعة الزائدة على الثلاث، التي اتصف بها الموصوف الواحد في الذكر الحكيم قد جاء بشكل محكم مترابط الأجزاء، وأن كل صفة قد وضعت في موضعها المناسب، قد التحم سابقها بلاحقها ؛مما نتج عنه تناسب ألفاظها ومعانيها على مستوى واحد من الدقة والإحكام .
– أكدت الدراسة على أن تناسق ترتيب تلك الصفات قد قام على نظام بديع وأن أي تقديم أو تأخير لصفة على أخرى يحدث خللا في نظم هذا الكتاب المعجز؛ مما يؤكد على أن القرآن الكريم ليس فيه حرف واحد قد وضع في غير موضعه، ولا كلمة تقدمت أو تأخرت إلا لغرض مقصود وهدف مراد .
– الانسجام وائتلاف اللفظ مع المعنى وحسن البيان والتمكين والمساواة والإبداع وحسن النسق والتسهيل وحسن التأليف من السمات البارزة في ترتيب الصفات المفردة للموصوف الواحد الزائدة على الثلاث في الذكر الحكيم.

– إن مراعاة وجوه الترتيب النظمي للصفات المفردة للموصوف الواحد الزائدة على الثلاث قد أعطى المفسرين في الجانب الأسلوب البلاغي مساحة واسعة في دراسة آيات القرآن الكريم المتعلقة بهذا الجانب؛ وذلك وفق رؤية شاملة لأبعاد النظم الحكيم بما يلقي الضوء على وجوه الترابط والتماسك الترتيبي بين أجزائه .

– أثبتت الدراسة من خلال الكشف عن الأسرار البلاغية والنظم الترتيبي

للصفات المنوطة بالدرس والتحليل أن هذا اللون من الدراسة يأتي كأفضل رد على إفتراءات بعض المستشرقين الزاعمين أن القرآن الكريم غير مترابط الأجزاء، وأنه مفكك المقاطع .

كما أظهرت الدراسة بما تناولته من شواهد وجها من وجوه الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم؛ فهذا الترتيب المحكم للصفات المفردة للموصوف الواحد الزائدة على الثلاث في الذكر الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولكل الوشائج التي بين أجزائه والتي ساهمت في بناء ترتيب محكم لها؛ تكشف عن أن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم خالدة مدى الدهر، وأن اعجازه متجدد في كل عصر وزمان، ستكشف الأجيال وجها من وجوه الإعجاز .

- التنسيق في الصفات المنوطة بالدراسة مداره ترتيب وتنظيم الصفات ترتيبا وتنظيما يؤدي إلى أسرار ونكات بلاغية لا علاقة له بالتقديم والتاخير الذي يكون بين العناصر اللغوية تقديما وتاخيرا؛ لأنه يتطلب أصلا وفرعا، وليس هذا في الترتيب؛ من هنا يجب الفصل بين الأمرين.

- **التوصيات** :

توصي الدراسة وتأمل أن تتضافرجهود الباحثين والدارسين في المجال البلاغي في العصر الحديث على علم المناسبة من خلال إبراز الروابط وأوجه التناسب بين آيات القرآن الكريم؛ بحيث يتم استيعاب كل مفاصل هذا العلم الشريف.. والله من وراء القصد ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله .

فهرس المراجع والمصادر

- آل حم – غافر وفصلت : دراسة في أسرار البيان – أ.د / محمد أبو موسى – مكتبة وهبة / ط أولى ٢٠٠٩ م .
- الأبعاد الجمالية للتقديم والتأخير في سورة الفاتحة – رسول بلاوي– بحث منشور في مجلة الكلية الإسلامية الجامعة – العدد الحادي والأربعون – ٢٠١٦م.
- الإتقان في علوم القرآن – السيوطي – القاهرة ١٣٦٨ هـ. وطبعة بتحقيق / مركز الدراسات القرآنية – المملكة العربية السعودية.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – أبو السعود بن محمد العمادي - تحقيق/ عبد القادر عطا – مطبعة السعادة – الناشر مكتبة الرياض الحديثة بالرياض.
- أساس البلاغة – جار الله محمود بن عمر الزمخشري – تحقيق/ محمد باسل عيون السود – منشورات محمد علي بيضون – دار الكتب العلمية بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٩٩٨م.
- أسماء الله الحسنى دراسة في البنية والدلالة ا د /أحمد مختار عمر – الهيئة المصرية العامة للكتاب– طبعة خاصة من عالم الكتب من مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ م.
- أسماء الله الحسنى – رجاء محمد المصري المكي – مكتبة التوعية الاسلامية / الطبعة الثانية (د.ت).
- الإعجاز البلاغي في سورة القلم – هناء عابدين عبد الله – بحث منشور في المجلة العلمية لكلية الآداب – جامعة أسيوط – العدد الثاني والعشرون – سنة ٢٠٧م.
- إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق – د/ حفني شرف – منشورات

المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- الجمهورية العربية المتحدة – الكتاب الرابع – ١٩٧٠م.

- أنوار الربيع في أنواع البديع – علي صدر الدين ابن معصوم المدني: ٦ / ١٢٨ – تحقيق/ شاكر هادي شكر – النجف الأشرف ١٩٦٨م.

- الإيضاح في شرح مقامات الحريري – أبو المظفر ناصر بن المطرزي – إيران – ١٢٧٢هـ.

- البحر المحيط – أبو حيان الأندلسي – تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى- ١٩٩٣م. وطبعة دار الكتب العلمية بيروت .

- بدائع الفوائد – محمد بن قيم الجوزية – تحقيق: علي بن محمد العمران – دار عالم الوائد للنشر والتوزيع . (د.ت) . وطبعة دار الفكر / بيروت .

- بديع الترتيب في القرآن الكريم دراسة دلالية جمالية – د / خالد كاظم حميدي – بحث منشور في مجلة اللغة العربية وآدابها – العدد الثامن عشر – سنة ٢٠١٣م.

- البرهان في علوم القرآن – الزركشي – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم – مكتبة دار التراث – القاهرة.

- بلاغة التعديد في القرآن الكريم : دراسة في أسلوبية التعبير القرآني) مازن عبد الرسول سلمان – جامعة ديالي – قسم اللغة العربية – كلية التربية الأساسية .

- التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن – عبد الواحد عبد الكريم الزملكاني – تحقيق د / أحمد مطلوب ، و د / خديجة الحديثي – بغداد ١٩٦٤م.

- الترتيب في لغة القران الكريم- شكيب غازي بصري الحلفي - بحث منشور في مجلة (دواة) مجلة فصلية محكمة تُعنَى بالبحوث والدراسات اللغوية والتربوية- سنة النشر ٢٠١٦م.
- التعبير القرآني - د / فاضل صالح السامرائي - ص ٥٦ - دار عمار - الطبعة الرابعة - ٢٠٠٦م.
- التعريفات - الشريف علي بن محمد الجرجاني - تصحيح جماعة من العلماء دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ.
- التفسير الكبير - الفخر الرازي - دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية . وطبعة دار الفكر للطباعة والنشر- الطبعة الأولى- ١٩٨١م.
- التناسب في سورة محمد (دراسة بلاغية تحليلية) - د / أحمد يحيى على محمد ، د / أحمد محمد علي محمد - بحث منشور في مجلة آداب الرافدين - العدد الستون - سنة ٢٠١١م .
- جامع البيان عن تأويل اي القران - محمد بن جرير الطبري - الطبعة الثالثة - ١٩٦٨ - مصطفى البابي الحلبي .
- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان - أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي - تحقيق: د / عبد الله بن عبد المحسن القرطبي، ومحمد رضوان عرقسوسي- مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى/ ٢٠٠٦م.
- حدائق السحر في دقائق الشعر - رشيد محمد العمري الشهير بالوطواط - ترجمة د/ إبراهيم الشواربي - تقديم / أحمد الخولي - الطبعة الثانية- ٢٠٠٩م.
- حسن التوسل إلى صناعة الترسل - شهاب الدين محمود الحلبي - المطبعة الوهبية بمصر ١٣٩٨هـ.
- خزانة الأدب وغاية الأرب - ابن حجة الحموي - القاهرة - ١٣٠٤هـ .

- دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - تحقيق / محمود محمد شاكر - الطبعة الثالثة - مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة ، ١٤١٣ هـ- ١٩٩٢ م .
- دلائل النظام - عبد الحميد الفراهي الهندي - المطبعة الحميدية - الطبعة الأولى - ١٣٨٨هـ.
- دلالات التقديم والتأخير في القران الكريم - دراسة تحليلية - د/ منير محمود المسيري - مكتبة وهبة / ط أولى - ٢٠٠٥م .
- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان - ضبط وتصحيح/ مصطفى السقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي - الناشر/ دار المعرفة للطباعة - بيروت / لبنان (د . ت).
- روح المعاني - دار إحياء التراث العربي / بيروت - (د. ت).
- سياقات قرآنية في أواخر سورة الحشر - وسن محمود لطيف - بحث منشور في مجلة الجامعة العراقية - العدد الثالث والثلاثون - الجزء الثالث - د . ت .
- شأن الدعاء - الخطابي - تح / أحمد يوسف الدقاق - دار المأمون للتراث / بيروت دمشق - ط أولى ١٩٨٤ م .
- شرح ديوان صريع الغواني (مسلم بن الوليد ت ٢٠٨هـ)- تحقيق/ سامي الدهان - دار المعارف القاهرة - الطبعة الثالثة.
- شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان - السيوطي - القاهرة ١٩٣٩م.
- علم المناسبات في السور والآيات - د / محمد بن عمر بن سالم بازمول - الناشر / المكتبة المكية - مكة المكرمة - الطبعة الأولى - ٢٠٠٢م .
- العمدة - ابن رشيق القيرواني - تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد - دار الجيل - بيروت - الطبعة الخامسة - ١٩٨١م.

- الفروق اللغوية – أبوهلال العسكري – تحقيق/ محمد إبراهيم سليم – دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع (د.ت) . وطبعة دار الكتب العلمية بيروت – ١٩٨١م.
- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان – ابن النقيب – القاهرة ١٣٢٧ هـ.
- القاموس المحيط – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي – تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي – مؤسسة الرسالة – الطبعة الثامنة – ٢٠٠٥م.
- الكتاب – أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر– تحقيق وشرح / عبد السلام هارون – الناشر / مكتبة الخانجي بالقاهرة – الطبعة الثالثة – ١٩٨٨م.
- كشاف اصطلاحات العلوم والفنون – محمد علي التهانوي – تحقيق/ رفيق العجم، وعلي دحروج – الناشر/ مكتبة لبنان– الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
- الكشاف – الزمخشري – مكتبة العبيكان – الطبعة الأولى ١٩٩٨م.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون – مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة – تحقيق/ محمد شرف الدين يالتقايا، ورفعت بليكة – دار إحياء التراث العربي – بيروت / لبنان.
- الكليات – أبو البقاء الكفوي – تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ.
- لسان العرب – ابن منظور – دار صادر بيروت.
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل – د / فاضل صالح السامرائي – دار عمار – الطبعة الثالثة / ٢٠٠٣م .
- اللغة العربية معناها ومبناها – د/ تمام حسان – دار الثقافة – مطبعة

النجاح الجديدة – الدار البيضاء – المغرب ١٩٩٤م .
– مجموع الفتاوى : أحمد بن عبدالحليم بن تيمية ، جمع عبد الرحمن بن قاسم ، تصوير الطبعة الأولى.
– المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز – أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي – دار الكتب العلمية – لبنان – الطبعة الأولى ١٩٩٣م.
– مدارج السالكين – ابن القيم – دار الكتب العلمية / بيروت – الطبعة الأولى (د . ت).
– معاني النحو– د / فاضل صالح السامرائي – دار الفكر للطباعة والنشر – الطبعة الأولى – ٢٠٠٠م .
– معترك الأقران في إعجاز القرآن – السيوطي – تحقيق / علي محمد البجاوي – القاهرة – ١٩٧٣م.
– معجم المصطلحات البلاغية وتطورها – د / أحمد مطلوب – مطبعة المجمع العلمي العراقي – ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م).-
– المعجم المفصل في علوم البلاغة – د / إنعام عكاوي – دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى – ١٩٩٢م.
– المعجم الوسيط – إبراهيم أنيس وآخرون – الناشر / مجمع اللغة العربية – مكتبة الشروق الدولية – الطبعة الرابعة – ٢٠٠٤م.
– المفردات في غريب القرآن – الراغب الأصفهاني – تحقيق / صفوان عدنان داوودي – دار القلم / دمشق – الدار الشامية بيروت – الطبعة الرابعة ٢٠٠٩م.
– مقاييس اللغة – أحمد بن فارس – تحقيق / عبد السلام هارون – دار الفكر للطباعة والنشر – ١٩٧٩ م.

- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى – الغزالي – بعناية بسام عبد الوهاب الجابي – الجفان للطباعة والنشر – القبرص – الطبعة الأولى / ١٩٨٧م .
- من أسرار النظم القرآني في سورة التكوير – د / عيسى بن صال الرجبي – بحث منشور في مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية – العدد الرابع عشر – سنة ١٤٣٣هـ .
- مناهل العرفان في علوم القرآن – محمد عبد العظبم الزرقاني – تحقيق/ فواز أحمد زامرلي – الناشر/ دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الأولى.
- من بلاغة آيات الدعاء في القرآن الكريم – د/ يحي بن محمد عطية – بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها – الجزء الخامس عشر – ١٤٢٤هـ .
- من الدراسات البلاغية للقران الكريم(سورة المؤمنون نموذج تطبيقي).بحث مقدم من د/ محمود عبدالحميد السقا– كلية التربية جامعة طنطا منشور في مجلة كلية الآداب– العدد ٢٢/ ٢٠٠٩م.
- من هدي القران الكريم : تفسير بلاغي لسورة المؤمنون د/ بسيوني فيود– مطبعة السعادة / أولى ١٩٨٩م .
- نظرية التحول في الخطاب القرآني – د/ فاضل مدب الأحبابي – بحث منشور في مجلة أهل البيت – العدد الثامن عشر.
- النظم البلاغي في فاتحة الكتاب – نايف جاردو أحمد حسن الساداني – مجلة آداب الرافدين– العدد ٦٩– ٢٠١٤م .
- نظم الدرر – البقاعي – دار الكتب الإسلامي بالقاهرة (د . ت).
- نهاية الأرب في فنون الأدب – شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري –

تحقيق د / علي بن ملحم – منشورات محمد علي بيضون – دار الكتب العلمية بيروت / لبنان . وطبعة دار الكتب المصرية القاهرة (د . ت).

- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز– فخرالدين الرازي– تحقيق/ نصر الدين حاجي أوغلي– دار صادر بيروت – الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

- الوحدة البنائية للقرآن المجيد – طه جابر العلواني – دار الشروق – ٢٠٠٥م. –

وحدة النسق في سورة المجعة – د/ محمد أحمد الجمل ، ود / محمد رضا الحوري – بحث منشور في مجلة جامعة اليرموك – الأردن (د. ت)

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر – أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي – تحقيق د / مفيد قميحة – دار الكتب العلمية / بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – ١٩٨٣م .